نظم القرابة: لمحة تاريخية

رأينا في الفصل السابق كيف إن الإنسان يشترك مع غيره من الكائنات في خاصية تشكيل العائلة البيولوجية، لكنه يتميز عنها جميعا في أن العائلة الإنسانية، إضافة إلى أنها حقيقة بيولوجية، مؤسسة اجتماعية ذات صبغة قانونية. وتتكرس هذه الصفة القانونية مع ظهور ونمو مفهوم الملكية الخاصة بما يترتب على ذلك وينشأ عنه من توريث الإسم والثروة والمكانة والالتزامات والعلاقات الاقتصادية والسياسية. لذلك لا يستغرب أن يدشّن هذا الحقل من الدراسات الأنثروبولوجية في بداياته على يد عدد من المحامين والقانونيين الذين صادف وأن نشروا أعمالهم في فترات متقاربة جدا. ولهذا السبب أيضا استمد الأنثربولوجيون معظم المصطلحات والمفاهيم التي يستخدمونها في دراساتهم للأنساق القرابية من القانون الروماني الذي كان يشكل نقطة الانطلاق للكثيرين منهم. وقد جاءت الأعمال التي دشنت البحث في الأنساق القرابية في فترة كانت فيها الأجواء الفكرية مشبعة بفكرة التطور ومنشغلة بالبحث عن الجذور البدائية والأصول الأولى التي نشأت منها وتطورت عنها في مراحل متتالية مختلف النظم والمؤسسات الاجتماعية، بما في ذلك نشوء العائلة البشرية وأصل تحريم زواج المحارم. فسوف يلاحظ القارئ أن تواريخ نشر الأعمال الرائدة في هذا المجال والتي وضعت أسسه الأولى تمتد من بداية العقد السابع إلى بداية العقد الثامن من القرن التاسع عشر، أو ما يسمى العقد الداروِيني الذي يمتد من سنة نشر كتاب دارْوِن عن **أصل الأنواع** *The Origin of Species* (1859) حتى سنة نشر كتابه عن **أصل الإنسان** (1871) *The Descent of Man*.

المرحلة التمهيدية

من أوائل من تعرضوا للمؤسسة العائلية والأنساق القرابية المحامي الإنجليزي هنري مين (١٨٢٢–١٨٨٨) Sir Henry James Sumner Maine الذي نشر استنتاجاته في كتابه **القانون القديم** (1861) *Ancient Law*. ولن نتطرق بالتفصيل لأطروحات مين لأن ما يهمنا منها فقط هو تلك الجزئية المتعلقة بأصل العائلة البشرية، وهي أطروحات تتقاطع مع الأطروحات التي سنتعرض لها بعد قليل والتي تقول إن الجنس البشري مر بمرحلة الإباحية الجنسية promiscuity وتتبع النسب من الأم بدل الأب.

يرى مين أن مفهوم العقد الذي يتحدث عنه أصحاب نظرية العقد الاجتماعي لا يمكن تصوره بدون وجود قوانين تحكم ذلك العقد الذي يفترض أنه اتفاق مُلزم بين طرفين. ويحاول مين أن يصحح مفهوم أولئك عن طبيعة القانون بقوله إن أساس القانون وبذرته ليس وجود مشرع يسن القوانين ويفرضها بإرادته على الناس ويلزمهم بالتقيد بها وتطبيقها بحكم موقعه وما يتمتع به من سلطة سياسية. وفهم هذه القضية على حقيقتها يتطلب منا الرجوع إلى البدايات الأولى التي كان فيها المجتمع الإنساني مجتمعا بسيطا لم يصل إلى مرحلة التنظيمات المتطورة، حينما كان أبو العائلة هو منبع السلطة الوحيد. وفي حالة انعدام الوثائق التي يمكن الرجوع إليها لمعرفة الأحوال الاجتماعية في المراحل الموغلة في القدم فإننا مضطرون للبحث

هنا وهناك عن الرواسب الثقافية والمخلفات المتبقية من تلك المراحل. ومع أن مَكْلِيْنَن وتايْلُر سيعتمدان لاحقا على مفهوم الرواسب الثقافية ليبلورا أفكارهما عن نظرية التطور الثقافي والاجتماعي بشكل خلاق إلا أن المفهومين مختلفين حيث يقصد مين بالرواسب الوثائق والشواهد اللغوية التي تخص أمة من الأمم وتعيننا في تتبع التسلسل التاريخي من حاضر هذه الأمة إلى ماضيها، بينما يقصد مَكْلِيْنَن وتايْلُر الخرافات والأساطير والممارسات البالية التي تساعدنا في تتبع مسيرة تطور الجنس البشري ككل، بحيث يبدو لنا ما هو غير معقول خارج سياقه الثقافي معقولا إذا رجعنا به إلى سياقه الصحيح.

يبدأ القانون، في نظر مين، كعادات وتقاليد وسُنن وأعراف وسوابق يخضع لها الناس بحكم العادة دون وعي أو قوة رادعة؛ وهذه تتحول بالتدريج ومع نمو المؤسسات السياسية والاجتماعية وآليات الضبط الرسمية إلى قوانين ملزمة تصدر بقرارات واعية وأهداف مقصودة ومحددة بعد التداول والتشاور، خصوصا مع ظهور الكتابة التي مكنت من تدوين القوانين ونشرها وتعميمها، وتعديلها إذا لزم الأمر. أي أن الإنسان البدائي لم يكن يعرف القوانين بمفهومها الحديث لأن القانون نتاج تحولات تاريخية يمر بها الجنس البشري. والعقد بطبيعته شأن فردي والمجتمع البدائي كان يقوم على الجماعة ممثلة بالعائلة التي تمثل وحدة البناء الاجتماعي، وليس على الفرد، وكانت المسؤولية مسؤولية جماعية مشتركة وليست فردية ولذلك تتماهى سمعة الفرد ومكانته مع سمعة العائلة ومكانتها. وهنا يأتي تقاطع أطروحات مين مع أطروحات أصحاب نظرية الإباحية الجنسية لأنه كان يرى أن شكلا ما من أشكال الزواج كان ضروريا لوجود المؤسسة العائلية التي بدورها تشكل النواة الأساسية لوجود المجتمع البشري.

اعتمد مين في بداية أبحاثه على الوثائق اليونانية والرومانية ولاحظ توافقا بين القوانين التي سجلتها تلك الوثائق وبين القوانين القديمة في الهند وكذلك في إيرلندا. وهذا ما قاده إلى دراسة الحمولة، أو العائلة الأبوية المشتركة patriarchal joint family في المجتمعات الهندوأوربية القديمة والتي تتكون من مجموعة من الأقارب الذكور المنحدرين من نفس الأب أو الجد يعيشون في بيت واحد مع زوجاتهم وذراريهم ويشكلون وحدة اجتماعية واقتصادية واحدة ويخضعون لسلطة رئيس واحد هو الأب أو الأخ الأكبر الذي يتمتع بسلطة مطلقة، أو ما يسميه الرومان *patria potestas*. وتتعدى سلطة الأب حق التصرف في ثروة العائلة، التي هي ملك مشاع للجميع، لتشمل حتى حقه في بيع أبنائه أو خلعهم أو رهنهم أو حرمانهم من الميراث، لأن الإبن وما يملك ملك لأبيه. ومن هنا جاء الانتساب حصريا إلى الأب agnation لأن الأبناء لو انتسبوا أيضا إلى أمهم فإنهم سيخضعون لسلطتين هما سلطة الأب وسلطة أبي الأم، وهذا أمر غير ممكن نظرا لاحتمالية تعارض السلطتين وما تمثلانه من مصالح. ولا تستند سلطة الأب على أفراد عائلته إلى مبدأ عام يحكمها لذا لا يمكن أن نسميها قانون وإنما هي أحكام آنية بلا اتساق بينها ولا رابط يربطها. إنها أقرب إلى نزوات شخص لا حدود لسلطاته. والشاهد الذي اعتمد عليه مين للتوصل إلى هذه النتيجة هو كلمة *Themistes* التي ترد في الملاحم الهومرية والتي تشير إلى الأحكام الارتجالية التي تلهمها الآلهة عن طريق الوحي للكهنة وقضاة اليونان القدامى. وكلما رجعنا إلى الوراء تاريخيا كلما ابتعدنا عن مفهوم القانون الوضعي حيث لا وجود لسلطة تشريعية. الخضوع التام للسلطات المطلقة التي يتمتع بها الأب، وليس العلاقة البيولوجية، هي التي توحد أفراد العائلة وتحدد انتمائهم لها وتمنحهم حق الانتساب لها. ومن هنا فإن الأبناء من أم واحدة ولكن من أبوين مختلفين لا يعدون إخوة لأنهم لا يخضعون لنفس السلطة. وقد لاحظ مين وجود هذا الشكل العائلي

في الهند واستنتج من ذلك أنه هو الشكل الأولي للشعوب الهندوأوربية القديمة. بناء على هذا الاستنتاج قال بأن الشكل البدائي للعائلة البشرية يقوم على سلطة الأب المطلقة patriarchy ومن ثم فإن انتساب الأطفال كان لأبيهم في البداية ولم يأتِ الانتساب للأم matriarchy والزواج التعددي إلا في مراحل لاحقة. في تلك المرحلة البدائية الموغلة في القدم كانت الحمولة من الناحيتين، القانونية والتنظيمية، تقوم مقام الدولة وكانت العلاقات بين الحمائل والعوائل أشبه بالعلاقات بين الدول في المجتمعات المتحضرة.

وفي تشخيصه للمجتمع القديم قال مين بأن الوحدة الأساسية فيه ليس الفرد وإنما هي الحمولة وكل حمولة يرأسها أب تخضع لسلطته المطلقة، على خلاف المجتمعات الحديثة المتطورة والتي يشكل الأفراد المستقلون وحداتها الأساسية. في المجتمعات القديمة لم تكن للفرد حرية التملك أو البيع والشراء أو التعاقد مع أي طرف آخر خارج إطار الجماعة التي ينتمي لها. كانت الحمولة أشبه بالنقابة أو الشركة corporate group التي تتمتع بشخصية اعتبارية ويستمر وجودها عبر الزمن في الأولاد والأحفاد بعد موت الأجداد، ومما يحافظ على هذه الاستمرارية ما تمارسه العائلة من طقوس وتقدمه من قرابين لتحافظ على وحدتها وتبقى ذكراها ماثلة في النفوس. لذلك لم تكن حياة الفرد في تلك المجتمعات القديمة تبدأ بحياته وتنتهي بموته فهو استمرار لسلفه مثلما أن خلفه امتدادا له، فهو يبقى عائشا ما عاش أولاده من بعده وأحفاده وأحفاد أحفاده ولا يموت إلا بانقطاع سلالته. وعلى هذا الأساس فإن التنظيم السياسي يبدأ مسيرته التطورية بفرضية أن العامل الوحيد الذي ينتظم أعضاء التجمع ويوحدهم سياسيا في دولة واحدة أو اتحاد قبلي ويشكل أرضية مشتركة فيما بينهم ويدفعهم إلى العمل المشترك، ليس الجوار المكاني والانتماء لوطن وإنما صلة القرابة وانتسابهم جميعا إلى جد واحد، على أن يشمل ذلك الانتساب حتى من ينظَمّون للجماعة عن طريق الحلف أو التبني. بمعنى أن التجمع الذي يتشكل منه هذا المجتمع تجمع طبيعي وليس مفتعل. فإذا تجمع عدد من الحمائل شكلوا ما يسمى *gens* (صيغة الجمع *gentes*) وهو مصطلح كان اللاتينيون يطلقونه على العشيرة الأبوية. وحينما تتحالف مجموعة من هذه العشائر الأبوية تشكل ما يسمى phratry، أي "أخوية" أو قبيلة، ومجموعة القبائل المتحالفة تشكل رابطة confederacy. كل هذه المجموعات التي تنتظمها الرابطة يوحدهم ادعاء النسب الأبوي agnation حيث يعتبرون أنفسهم منحدرين من جد واحد ويشكلون وحدة واحدة ومتماسكة. وكان القانون الروماني القديم لا يعترف إلا بالانتساب للأب دون الأم، مما يعني حصر الميراث في الأبناء الذكور دون الإناث. لذا فإنه في حال انقطاع النسل من الأبناء الذكور تلجأ العوائل من أجل الحفاظ على الميراث وعلى إقامة الشعائر والطقوس الدينية المتعلقة بعبادة الأسلاف إلى وسيلة التبني الذي يسميه مين حيلة قانونية legal fiction والتي بموجبها يتظاهر الطرفان ويدعيان أنهما أقرباء بالأصل وليس بالتبني. كما يلجأ المتحالفون إلى هذه الحيلة القانونية نفسها ليتظاهروا بأنهم ينحدرون من سلف واحد. هذه الحيل التي تحافظ على حرفية القانون مع تغير مضمونه قامت بدور مهم في المساعدة على حركية المجتمعات وتطورها، وفي نفس الوقت الظهور بمظهر المحافظة على العادات والتقاليد والسنن المرعية التي يصعب على الناس التخلي عنها.

ولا يحل مفهوم الفرد محل الحمولة ومفهوم المواطنة والانتماء المكاني محل النسب والانتماء القرابي إلا في مراحل لاحقة حينما يقطع المجتمع شأوا على مسيرة التطور في مجال التنظيم الاجتماعي وتحل الملكية الخاصة محل الملكية المشاعة والمسؤولية الشخصية محل المسؤولية الجماعية. المسؤولية الجماعية كانت هي

الركيزة التي يرتكز عليها القانون في روما القديمة بحيث أن جميع الحقوق والواجبات والالتزامات والمسؤليات والجزاءات لا تقع على الفرد شخصيا وإنما على الجماعة التي ينتمي لها والتي يشترك معها في المسؤولية وفي كل الحقوق والواجبات. من أهم إسهامات مين تتبع تطور العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع من تلك االتي تسود في المجتمعات البدائية والتقليدية وتقوم على الانتماء العائلي والمنزلة الاجتماعية التي يورثها الآباء للأبناء ومن خلالها تتحدد جميع امتيازات الفرد والتزاماته ومكانته في المجتمع status إلى تلك التي تقوم على الإنجازات الفردية ويحددها التعاقد الحر والاتفاق الشخصي بين الأفراد مدعوما بسلطة القانون contact. وهكذا يرى مين أن ظهور الدولة لم يأت نتيجة التعاقد بين أفراد أحرار ومستقلين، كما يفهمه أصحاب نظرية العقد الاجتماعي، وإنما نتيجة التحول التدريجي من العلاقات القرابية إلى العلاقات المكانية.

تخصص مين في القانون المقارن وعمل ضمن الهيئة الاستشارية مع نائب الملك البريطاني في الهند. وقد رأى في عمله استمرارا وتطويرا لمنهج البحث التاريخي المقارن الذي دشنه سلفه الفرنسي مونتِسْكيو Montesquieu في كتابه **روح القوانين** *Esprit des lois*. وجاءت آراؤه كرد على طروحات أصحاب نظرية العقد الاجتماعي من الفلاسفة الذين صاغوا نظرياتهم ليس من قراءة لحقائق التاريخ وإنما بتأثير من وتحت إلحاح قضايا ساحنة كانت تشغل بال الناس في عصرهم. فقد أراد مين أن يبين أن المجتمع القديم، على عكس ما كان يعتقد جان جاك روسّو، لم يكن مجتمعا بريئا جنسيا لا يعرف قيود الزواج والمؤسسة العائلية ولم يكن مجتمعا مثاليا خال تماما من أي مظهر من مظاهر السلطة والقهر وتسود فيه المساواة بين الجنسين والحرية المطلقة بين الأفراد. لا يمكن أصلا أن تتحقق الحرية الفردية إلا بعد أن تحل الدولة محل العائلة ويصبح الفرد حرا يتعاقد مع من يشاء بصفته الشخصية لا العائلية ويتحرر من المكانة التي يفرضها انتماؤه العائلي وتحددها خلفيته الأسرية بدون مشيئة منه ولا إرادة ويتحلل مما يترتب على المكانة الموروثة من التزامات وقيود. هذه هي الحرية الحقيقية، في نظر مين، وليست الحرية الوهمية التي ينادي بها أصحاب نظرية العقد الاجتماعي من أمثال روسّو والتي لم تكن موجودة أصلا. كما أراد مين أن يبرهن في كتابه على أن السياقات الثقافية والاجتماعية والمرحلة الثقافية التي يمر بها أي شعب من الشعوب هي التي تشكل شخصية أفراده وقيمهم الثقافية، إذ لا توجد وحدة نفسية أو طبيعية بشرية ثابتة لا تتأثر بما يحيط بها من ظروف، على عكس ما كان يعتقده جِرِمي بِنْتام Jeremy Bentham ومناصروه من أصحاب الفلسفة النفعية utilitarians الذين بلوروا مفهومهم للقانون الطبيعي على هذا الأساس الخاطئ الذي كانوا متأثرين فيه بقيم ومفاهيم المجتمع البريطاني إبان العصر الفيكتوري، فالقانون، بصفته نتاج إنساني، يخضع لعملية صيرورة مستمرة نتيجة للتحولات التاريخية والاجتماعية التي تمر بها الأمم (Kuper 1988: 17-41; Trautmann 1987: 179-91).

ولا تختلف طروحات مين كثيرا عن طروحات المفكر الفرنسي فوستيل دي كولانج (١٨٣٠–١٨٨٩) Numa Denys Fustel de Coulanges ليس فقط في تأكيده على أولوية النسب الأبوي وإنما أيضا في اعتقاده بأن الشعوب اليونانية والرومانية القديمة لا تلقي ضوءا فقط على بدايات الجنس الآري وإنما على بدايات الجنس البشري كله. اهتم دي كولانج بدراسة الديانات والمعتقدات الآرية القديمة لأنه رأى فيها مفتاحا لتفسير القوانين والمؤسسات اللاحقة التي تبدو غامضة ومتناقضة لو أخذناها خارج السياقات الدينية والمعتقدات والطقوس التي نشأت فيها وانبثقت منها. ونظرا لانعدام المصادر التاريخية التي تحيلنا إلى تلك المرحلة الموغلة في القدم فليس أمامنا إلا أن نعيد بنائها مستعينين بالفرضيات القائمة على الاشتقاق اللغوي ودراسة الأساطير

القديمة وما شابه ذلك من مستحاثات ثقافية ولغوية. ولم يكن دي كولانج مهتما بشكل الطقوس بقدر ما كان يهمه التعرف على وظيفتها الدينية والغاية من ورائها. وكان، مثله مثل مين، يتبنى مواقف سياسية محافظة وكتب كتابه **المدينة العتيقة** *La cite Antique*، الذي ترجم إلى الإنجليزية تحت عنوان *The Ancient City* ليرد به على أنصار الثورة الفرنسية والاشتراكيين الألمان بتأكيده على محورية الملكية الخاصة كأحد أهم المؤسسات الإنسانية وليؤكد على أن الصورة المثالية التي يزعمها أولئك بخصوص ما كان يتمتع به الفرد من حرية في المجتمع الإغريقي والمجتمع الروماني قديما هي مجرد وهم.

وقد استنتج دي كولانج من خلال أبحاثه إلى أن الاعتقاد بحياة أخرى كان من المعتقدات التي لازمت الآريين منذ أقدم العصور وأنهم كانوا يعتقدون أن الروح تبقى متعلقة بالجسد بعد الموت وتدفن معه، ولذا يلزم الدفن وفق طقوس ومراسم محددة. وبدون مراعاة هذه الطقوس تظل الروح ترفرف هائمة لا تعرف الراحة وتتحول إلى شبح يلحق الأذى بالأحياء ويقض مضاجعهم. لذا كان الخوف من ميتة لا يعقبها الدفن وفق هذه المراسم المحددة يعد أشد وطأة وتعاسة عند الآريين من الموت نفسه، وهذا ما نستشفه من نصوص الأدب القديم. وقد ربط دي كولانج بين جذور الملكية الخاصة عند الشعوب الهندوأوروبية القديمة وجذور الانتساب للأب والتي تعود إلى عبادة أفراد العشائر للأسلاف الذين تحدروا منهم. في تلك المجتمعات القديمة كان جميع أفراد العائلة أو الحمولة *gens*، كما يقول، يعيشون على الأرض التي يملكونها ويؤكدون على ملكيتهم لها بدفن أسلافهم عليها. وكانت أرواح الموتى من الأسلاف تعد كائنات مقدسة يتقربون لها بتقديم القرابين لترضيتها ودفع أذاها. وكانت القرابين تقدم على موقد العائلة المقدس الذي يوجد في كل منزل، وهي نفس القرابين التي صارت لاحقا تقدم للإلهة فِسْتا Vesta التي ترعى شؤون الأسرة أو تقدم للإله زِيُوس Zeus. وتتمثل عبادة الأسلاف في إبقاء هذه النار المقدسة التي تخلد ذكراهم مشتعلة رمزا لخلودهم ولتبقى ذكراهم حية في أذهان الخلف مما يعني أن خلود السلف مرهون باستمرارية وجود الخلف الذين يبقون النار مشتعلة، وهذا ما يؤكد على أهمية العائلة واستمراريتها عن طريق الزواج والإنجاب. وكان الأب هو سيد العائلة الذي يقع على عاتقه أداء طقوس العبادة وشعائرها والإبقاء على الشعلة حية وإنجاب الذكور الذين يواصلون المهمة، ويورث الأب مهامه لابنه الأكبر.

وتختلف تلك الديانات العتيقة عن الديانات اللاحقة في أن عبادة الأرواح عندهم كانت تعني عبادة الأسلاف وأن لكل عائلة ديانتها وآلهتها التي تخصها دون غيرها والتي تختلف عن ديانة وآلهة العوائل الأخرى ومستقلة عنها ويتوارثها الخلف عن السلف، ولذا كان الدين هو الأساس الذي تقوم عليه العائلة، أي أن الروابط العائلية روابط دينية قبل أن تكون روابط طبيعية بيولوجية وعاطفية. وفي تلك المرحلة البدائية لم تكن هناك أي مؤسسة سياسية أو دينية أو اقتصادية عدا المؤسسة العائلية التي تقوم على سلطة الأب. وقد ينضم إلى الحمولة بعض الموالي الذين يعبرون عن ولائهم بمشاركة الحمولة عبادة أسلافها. وكانت الأرض التي تعيش عليها العائلة غير قابلة للبيع لوجود رفات الأجداد عليها ولا للتجزئة لأن ذلك يعني تمزق الحمولة. هذا الاستقلال الديني العائلي يعني أن كل عائلة لها أرضها الخاصة بها والتي تضم رفات الأجداد وموقد النار المقدسة مما يمنح القدسية لتلك الأرض ويحتم على قاطنيها المحافظة عليها وحمايتها.

وينتقل دي كولانج بعد ذلك ليبين أثر هذه الطقوس على المؤسسة العائلية وعلى مفاهيم القانون والأخلاق والملكية الخاصة وعلى مفهوم المدينة نفسها. يقول دي كولانج إنه من هذه الجذور الدينية انبثق مفهوم الملكية

الخاصة التي تشكل الأساس الذي تقوم عليه الحضارة لأنه يعني إصلاح الأرض لتزداد إنتاجيتها ومن ثم إصلاح حال الإنسان. هذه هي البذرة الأولى لنشوء القوانين والمؤسسات الاجتماعية. فالقوانين في أساسها لم يسنها مشرع مدني بل إنها فرضت نفسها على المشرعين المدنين الذين وجدوها حقائق قائمة أصلا على الأرض على شكل عادات وتقاليد وممارسات راسخة تتمحور حول سلطة الأب وكل ما فعله المشرعون هو تنسقيها وتكييفها تدريجيا لتتلاءم مع الوضع المدني المستجد. وهكذا تحولت القوانين الدينية والأخلاقية التي تحكم علاقة أفراد العائلة مع بعضهم البعض إلى قوانين وأخلاقيات عامة تحكم علاقة مواطني المدينة مع بعضهم البعض. ومن البداية كان السلوك الأخلاقي مرتبطا بالمعتقدات الدينية التي منحته القوة والمتانة واكتسب منها سلطته وشرعيته. هذه كانت بداية المفاهيم الدينية والأخلاقية والقانونية عند دي كولانج.

وحينما يتعنقد عدد من العائلات لتشكل مع بعضها البعض عشيرة واحدة (*phratry* بالأغريقية أو *curia* باللاتينية) تنشأ آلهة جديدة جامعة تنضوي تحت لوائها عائلات العشيرة وتتوارى في ظلها آلهة العوائل. وكذلك الحال حينما تنضم عدد من العشائر لتشكل قبيلة ثم تنضم عدد من القبائل لتشكل مدينة، وكانت هذه الحال حينما تحولت الإلهة فِسْتا إلهة لمدينة روما التي انطلقت منها بدايات الحضارة الآرية. لا يتم التحول الحقيقي من الحياة العائلية القائمة على وحدة النسب والانتماء الديني إلى الحياة المدنية القائمة على المواطنة المكانية إلا بعد التحول من عبادة الأسلاف إلى عبادة المظاهر الطبيعية وعبادة الأجرام السماوية التي يشترك فيها الجميع ولا تخص عائلة دون أخرى. وفي المدينة تتوحد العوائل ويتألف مجلس لإدارة شؤونها يتألف من رؤساء العوائل الأرستقراطية التي تقطنها. نشوء المدن أدى إلى استعار الحروب بينها مما اضطر العائلات الاستقراطية التي تحكمها إلى الاستعانة بالموالي والعامة plebeians للدفاع عن مدنهم، وهذا مما عزز من مكانة هذه الطبقات المستضعفة التي صارت تعلو أصواتها للمطالبة بحقوقها مما أدى بالتالي إلى ثورة في أساليب التنظيم الاجتماعي والسياسي وتغير جذري في مفهوم الحرية والمواطنة والحقوق المدنية (De Coulanges 1980: 216ff).

وعادة ما يتم تأسيس المدينة حول مذبح يشيد في الوسط لتقديم القرابين للآلهة وموقدا توقد فيه نار الآلهة. وتقديم القرابين عبارة عن مناسبة احتفالية ومأدبة جماعية يتشارك العباد مع آلهتهم في تناولها. وفي تلك المرحلة كانت أهمية الطقوس والشعائر التي يتم أداؤها بصورة جماعية في العلن ليعبروا من خلالها على انتمائهم وولائهم للجماعة تعلو أهميتها على أهمية المعتقدات التي تضمرها القلوب. وكانت السلطة السياسية في تلك المرحلة تتماهى مع السلطة الروحية وكان الملك شخصا مقدسا تقع عليه إقامة الشعائر الدينية وممارسة السلطتين الروحية الدينية والدنيوية (De Coulanges 1980: 52ff, 165-9). ويؤكد دي كولانج على انعدام مفاهيم الحرية والعدالة آنذاك حيث لا مشيئة تعلو على مشيئة الآلهة ولا إرادة تعلو على إرادتها (De Coulanges 1980: 52ff, 211-5).

ويتضح لنا مما تقدم أن تفسير دي كولانج لنشوء الملكية الخاصة يختلف عن تفسير جان لُوْك الذي تبناه كارل مارْكْس والاقتصاديون الكلاسيكيون والذي يقول بأن منشأ الملكية الخاصة يعود إلى العمل والجهد الإنساني الذي بذل في إحيائها. أما دي كولانج الذي كان حريصا على تثبيت مفهوم قدسية الملكية الخاصة ودحض مزاعم الاشتراكيين الألمان فقد أكد، كما رأينا، أن الأساس ديني يعود إلى دفن الأسلاف على الأرض وإيداع أرواحهم فيها. ويستطرد قائلا إن هذا الأساس أقوى لأنه ينتزع من الأحياء الحق المطلق

للتصرف في الأرض لأنها ليست ملكهم وحدهم بل يشاركهم في ملكيتها الأجيال السابقة الذين دفنوا فيها والأجيال اللاحقة التي لم تولد بعد.

وتأتي أهمية دي كولانج في تأكيده على أهمية العشيرة كمؤسسة اجتماعية وتركيبتها ودورها في تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وعلى أهمية وآليات الانتساب وأن مفهوم من هو القريب ومن هو الغريب مفهوم ثقافي بحت، مما يعني اختلاف هذا المفهوم وآلياته من مجتمع لآخر. أي أن التجمعات البشرية في بداياتها كانت تجمعات دينية، بمعنى أن الانتماء للعشيرة أو للقبيلة أو للمدينة يعني الانتماء لنفس الآلهة، والغريب بينهم هو من لا ينتمي لنفس الآلهة ومن لا يحق له التضرع لها وطلب العون منها والحماية. كما أن نظرة دي كولانج إلى تطور المؤسسة العائلية والمؤسسة الدينية والطقوس التي تميزهما والقوانين التي تحكمهما والمراحل التي مر بها كل منها في تطوره كان له تأثيره الملموس على المفكرين الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع الأوائل الذين استفادوا من أطروحات دي كولانج في بلورة مفاهيم علمهم الجديد وفي النظر إلى أشكال ووظائف الأنساق القرابية في المجتمعات البدائية التي أصبحت تشكل المادة الأساسية لأبحاثهم ودراساتهم. كما نجد تفسيره للقرابين التي تقدم للآلهة (De Coulanges 1980: 147ff) يعود لاحقا بصيغ أخرى ولكن مشابهة عند كل من رابَرْتْصُن سْمِث وجيمز فْريْزر وإميل دوركهايم، كما يتضح لنا في الفصول التي نتناول فيها الطوطمية وطروحات كل من رابَرْتْصُن سْمِث وفْريْزر. وكان دوركهايم قد تتلمذ على دي كولانج في بدايات العقد التاسع من القرن التاسع عشر في مدرسة Ecole Normale Superieure. وقد تأثر بمفهوم دي كولانج عن الدين إلا أنه حور هذا المفهوم ليقول بأن الدين إفراز للواقع الاجتماعي وأن المجتمع بذلك هو الذي يشكل الدين وليس العكس. ويبدو تأثير دي كولانج واضحا على دوركهايم في ربط الأخير بين مفهوم الملكية الخاصة ومفهوم المقدس حيث أن مفهوم الملكية الخاصة يعني سحب الشيء المملوك من الاستخدام العام وتكريسه للاستعمال الخاص بحيث لا يستفيد منه إلا مالكه. ويتساءل دوركهايم ما الذي يدفع بالآخرين إلى احترام هذا الحق وعدم التعدي على الممتلكات الخاصة. الجواب أن الملكية الخاصة تتشابه في هذه الخاصية مع المقدس الذي يحرم ابتذاله ولا يجوز التعدي عليه والاقتراب منه إلا وفق طقوس وشعائر محددة مما يعني اشتراك المقدس في الأصل مع الملكية الخاصة كما بين دي كولانج بالنسبة للملكية الأرض التي يدفن فيها الأسلاف لأن الأرض التي تدفن فيها أرواح الأسلاف المقدسة تصبح مقدسة بالعدوى يحرم انتزاع ملكيتها من أفراد العائلة الأحياء. ومما يؤيد ارتباط الملكية الخاصة بمفهوم المقدس أن الزعماء والملوك في بولينيزيا ينشرون قوة المانا التي يتمتعون بها على ممتلكاتهم لتصبح من التابوهات التي يحرم الاقتراب منها. وقد توصل دوركهايم إلى نتيجة مؤداها أن جذور جميع المؤسسات الاجتماعية تعود إلى شعائر الدين، بما في ذلك الأخلاق والقانون والفنون والعلوم وأشكال السلطة السياسية لأن الطقوس الدينية هي أول ممارسة جماعية باشرها البشر (Jones 1993; Lukes 1973: 58-63). وسوف نتناول هذه القضايا بالتفصيل في الفصل الذي نتحدث فيه عن طروحات دوركهايم عن النسق الديني.

في نفس السنة التي نشر فيها مين كتابه نشر يوهان جاكوب باكْهوفن (١٨١٥–١٨٨٧) Johann Jakob Bachofen كتابه المعنون بالألمانية **حق الأم** *Das Mutterrecht* (1861)، الذي بسط فيه نظريته التي سماها حق الأم mother right والتي تتعارض مع نظرية مين، علما بأنه يعتمد على ذات المصادر اليونانية والرومانية التي اعتمد عليها مين ودي كولانج وأن مواقفه السياسية لم تكن بأقل محافظة منهما. باكْهوفن قانوني ومحام

من سويسرا كرس جهده لدراسة اللغات الكلاسيكية وله اهتمام خاص بديانات وأساطير قدماء الإغريق والرومان بحثا عن بدايات القوانين وأصول التشريع. ومن خلال دراسته لقدماء الإغريق والرومان وسع من مجال اهتماماته لتشمل النظر في التقارير المتاحة له عن المجتمعات البدائية المعاصرة ودياناتها وقوانينها. وتعد محاولة باكْهوفن أول محاولة جادة كرسها لبحث أصول العائلة البشرية كمؤسسة اجتماعية وتتبع مراحل تطورها وكان من ضمن الدعائم الأولى التي أسست فيما بعد لنشوء علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية. تقول نظرية حق الأم إن الجماعات البشرية في بداياتها الأولى لم تعرف الزواج ولا العائلة بل كانت تمارس الإباحية الجنسية. وكان من الطبيعي في هذا الوضع أن يعرف الطفل أمه ولا يعرف أباه، لذا كان الأطفال ينتسبون للأم، وهو ما سماه حق الأم matriarchy الذي يتعدى الولاية على الأطفال ليشمل تبوأ المرأة مركز السلطة في المجتمع gynocracy. ويتوافق مع سلطة الأم سمات ثقافية أخرى تتعلق بتقديس الرموز الأنثوية كأن تتغلب رمزية اليسار على اليمين والأرض على السماء والقمر على الشمس (نظرا لارتباط منازل القمر بتنظيم دورة العادة الشهرية عند المرأة). كما حاول باكْهوفن أن يفسر ممارسة الكوفاد couvade عند بعض الشعوب البدائية، أي تظاهر الزوج بأنه يعاني من أعراض المخاض عند ولادة زوجته، وقال إن ذلك ما هو إلا محاولة من الزوج للظهور بمظهر الأم الأخرى ليتمكن من أن يدعي الحق لنفسه بالطفل مثله مثل الأم الحقيقية. ولم يأتِ الانتساب إلى الأب إلا في مرحلة لاحقة بعد تشريع الزواج. ويتتبع باكْهوفن الخط التطوري للزواج ونظام العائلة من مرحلة الإباحية إلى الزواج الجماعي، أي اقتران مجموعة من الرجال بمجموعة من النساء، وجاءت بعد ذلك أنواع مختلفة من الزيجات مثل تعدد الزوجات وتعدد الأزواج وأخيرا جاءت مرحلة الزواج الأحادي.

ولقد توصل جان فرغسن مَكْلِيْنَن (١٨٢٧–١٨٨١) John Ferguson McLennan المحامي الأسكتلندي بشكل مستقل إلى نفس النتيجة التي توصل لها باكْهوفن بخصوص أولية انتساب الأطفال لأمهم وبسط آراءه في كتابه صغير الحجم نسبيا والمعنون **الزواج البدائي** (1865) *Primitive Marriage*. انصرف مَكْلِيْنَن إلى دراسة الرواسب الثقافية cultural survivals، أو ما سماه هو symbols، أي مخلفات العناصر الثقافية التي فقدت ما كان لها من وظائف في مراحل سابقة ولم تعد منسجمة مع المرحلة الراهنة نظرا لتغير السياقات الاجتماعية نتيجة التطور الحضاري. ولكن هذه الرواسب ظلت متكلسة وبقيت مطمورة حتى الوقت الحاضر كشواهد معاصرة يُستدل منها على تطور الحضارات ومراحل تطورها، مثلها مثل الأعضاء التي فقدت وظيفتها في جسد الكائن الحي ولكنها بقيت ولم تتلاشى. هذه الرواسب الثقافية، سواء في المجتمعات المتحضرة أو الجماعات البدائية المعاصرة، تمثل في نظر مَكْلِيْنَن محطات مختلفة ومتتالية لتطور الثقافة البشرية يمكن اللجوء لها لإعادة بناء وتشكيل سياقاتها الثقافية وتَمَثُّل الوظائف الأصلية لهذه الرواسب والمعاني التي فقدتها مما يسمح بإعادة بناء التاريخ الاجتماعي للجنس البشري. يرسم مَكْلِيْنَن ملامح منهجيته في الفصل الأول من كتابه لينتقل إلى الحديث في الفصل التالي عن زواج الخطف وجذوره في المجتمع البشري. زواج الخطف من رواسب العصور البائدة التي كانت تسودها الفوضى والعنف والعداء، وكان الرجال يتعاملون مع النساء وينظرون لهن كما ينظرون لقطعان الماشية التي يحل نهبها من الأقوام المعادية. وكان الرجال الأشداء هم الأقدر على ذلك. لكن هذه الطريقة بما يكتنفها من عنف وعدوانية لا يمكن أن تخلف رواسب تذكرنا بها إلا إذا كانت هناك أسباب وجيهة لذلك، لأننا مثلا لا نرى أن هناك رواسب ظلت ماثلة تذكرنا بأن نقل ملكية الماشية كانت تتم

عن طريق السلب والنهب بعد أن قضت الدولة الحديثة على ممارسات الغزو. فلماذا استمر الزواج السلمي مرتبطا بطقوس الخطف الصوري التي لم يعد لها أي معنى! يفسر مَكْلِيْنَن ذلك بالقول إن تحريم الزواج من داخل العشيرة اضطر الرجال للبحث عن زوجات من خارج العشيرة. وبحكم العداء المستحكم بين العشائر لم يكن أمام الرجال من طريق آخر إلا الخطف. وهذا ما يحاول مَكْلِيْنَن البرهنة عليه في كتابه.

لاحظ مَكْلِيْنَن إضافة إلى ممارسة البغاء في المعابد القديمة أن بعض المجتمعات يبيح تعدد الأزواج للمرأة الواحدة وبعضها يجيز للأخ أن يرث زوجة أخيه الميت levirate، ورأى في ذلك شواهد على مرحلة بدائية سبقت مرحلة الزواج كان فيها المجتمع البشري يمارس الإباحية بحيث أن الطفل لا يعرف من هو أباه، ومن ثم ينتسب لأمه، كما كان الوضع في بلاد اليونان القديمة، حسب زعمه. كما استدل من الوثائق التي تفحصها على وجود نوع من الخطف الصوري للزوجة في روما القديمة، أي أن يقوم أهل الزوج بالتظاهر بخطف الزوجة من أهلها، وفسر هذا الخطف الصوري على أنه راسب ثقافي يقوم دليلا على أنهم في الزمن الغابر كانوا فعلا يخطفون زوجاتهم وربط ذلك بوأد البنات. يقول إن الدافع وراء الوأد هو قسوة الحياة وشح الموارد الغذائية، علاوة على أن المجتمعات آنذاك مجتمعات متحاربة تحتاج قوة الرجال بينما لا تفيدها النساء في شيء، كما أن حالة الحرب والعداء الدائم بينها يجعل من خطف النساء أمرا جائزا وشائعا. وأد البنات سيؤدي إلى اختلال التوازن بين عدد الذكور وعدد الإناث وهذا ما يدفع بالجماعة إلى محاولة خطف زوجات لهم من الجماعات الأخرى مثلما يحاولون اختطاف أي شيء من ممتلكات تلك الجماعات الأخرى، وكانوا يتشاركون في مضاجعة النساء المخطوفات. ويقول إن هذا أصل تعدد الأزواج polyandry الذي يمارس عند قبائل النايار في الهند. فوأد البنات وخطف النساء والزواج الخارجي والنسب الأمومي وحالة العداء الدائم التي كانت تسود علاقات البشر كانت في نظر مَكْلِيْنَن تشكل في مجموعها رزمة من الظواهر الاجتماعية مترابطة ترابطا نسقيا، بمعنى أن وجود أي منها يعني وجود الآخر. ويستغرق الحديث عن هذه الظواهر من الفصل الرابع إلى الفصل السادس من الكتاب.

ابتداء من الفصل الثامن من كتابه يبدأ مَكْلِيْنَن بتتبع المراحل التطورية للعائلة البشرية ونظم الزواج ابتداء من ثلاثة أشكال متتالية من الزواج الخارجي والمتعدد ومنها إلى شكلين متتاليين من الزواج الداخلي انتهاء بالعائلة النووية التي تقوم على الزواج الأحادي. في المرحلة الأولى الموغلة في البدائية كان رجال العشيرة يعيشون مع بعضهم كرفاق ينتمون لنفس الجماعة وليس كأقرباء لأن مفهوم القرابة لم يكن معروفا ولم تكن هناك قوانين تحكم الزواج ومضاجعة النساء وكان الجميع شِرْكَة في ذلك. وهذا ما ينفي نظرية أن دوافع الزواج الخارجي دوافع سيكولوجية مبعثها الاشمئزاز من مضاجعة الأقارب، لأننا نتحدث عن مرحلة لم يتبلور فيها بعد مفهوم القرابة أصلا. وحتى مفهوم الفرد لم يتبلور بعد، كما يقول مَكْلِيْنَن، حيث كانت الجماعة هي وحدة التنظيم الاجتماعي وأساسه وليس الأفراد، وهو في ذلك يتفق مع مين. مفهوم القرابة، في نظر مَكْلِيْنَن، يقوم على شعور العصبية واعتقاد الأقارب بصلة الدم الذي يجري في عروقهم. لكن هذا الشعور ليس غريزيا وإنما شعور مكتسب يستنتجه الإنسان البدائي لاحقا ويتعلمه من خلال الملاحظه والتجربة عبر القرون الطويلة. ومن الطبيعي أن تنصب الملاحظة في البداية على الأم نظرا لما يمثله الحمل والولادة والرضاعة من ظواهر يسهل على الفرد ملاحظتها واستخلاص النتائج منها. ثم تأتي مرحلة تخطر على باله أن دم أمه الذي يجري في عروقه يجري أيضا في عروق إخوانه وأخواته لأنهم جاءوا من نفس الرحم. كان

الأطفال في بداية تلك المرحلة الهمجية الإباحية ينتمون للعشيرة ككل وأعضاء فيها لكنهم لا يعرفون آباءهم ولا أمهاتهم. يلي ذلك تعدد الأزواج واشتراكهم في زوجة واحدة. في تلك المرحلة البدائية من مراحل تعدد الأزواج كانت الزوجة تبقى مع أمها ولا تنتقل إلى بيت الزوجية نظرا لتعدد الأزواج وتباعد مساكنهم ومن أراد النوم معها من هؤلاء الأزواج ذهب إليها عند أمها. ويبدأ مفهوم قرابة الدم وعلاقة النسب أول ما يبدأ في مرحلة تعدد الأزواج عن طريق الانتساب للأم لأنه يصعب تحديد الأب بينما يسهل معرفة الأم. في هذه المرحلة تأخذ الجماعة في التمايز ويأخذ في التبلور مفهوم العشيرة الأمومية التي ينتمي أفرادها إلى سلف أنثى تجمعهم في النسب وتميزهم عن غيرهم من العشائر الأمومية الأخرى داخل التجمع الواحد. وبعد مدة زمنية كافية يتغير شكل الزواج من زواج خارجي من خارج الجماعة إلى زواج من داخل الجماعة ولكن من خارج العشيرة الأمومية، حيث أن الجماعة الواحدة تتألف من عدد من العشائر الأمومية كل منها تتميز بشعارها الطوطمي، بهذه الطريقة يستمر الاحتفاظ بشكل الزواج الخارجي، فهو وإن كان من داخل الجماعة إلا أنه من خارج العشيرة الأمومية. وحيث أن هذه العشائر تنتمي لنفس الجماعة وليست في حالة عداء مع أحدها الآخر فلم يعد هناك حاجة لممارسة الخطف. ومما يكرس التمايز العشائري بين أفراد الجماعة انحياز كل عشيرة عن الأخرى مكانيا لتستقل بسكنها ومنطقتها التي تصبح ملكا مشاعا لأبنائها دون غيرهم مما يقوي من انتساب الأولاد للأم تحديدا بدلا من انتسابهم للجماعة ككل. هذه الطريقة تؤدي إلى انحسار الإباحية ومنح العلاقة الزوجية شيئا من الاستقرار والديمومة مما يساعد تدريجيا على تحديد هوية الأب. هذه هي البدايات الأولى لظهور العائلة كما نعرفها.

المرحلة الثانية من مراحل تعدد الأزواج هي تلك التي يتشارك فيها الأخوة فقط في مضاجعة الزوجة، كما كان شائعا في بلاد التبت، وهذا الأصل الذي قاد لاحقا إلى أن يرث الأخ زوجة أخيه الميت. مع حلول المرحلة التي يتشارك فيها الأخوة فقط في مضاجعة الزوجة صارت الزوجة تنتقل من بيت أهلها إلى بيت الزوجية لأن الأخوة الذين يتشاركون فيها يسكنون في نفس المكان. وهذا سيقود لاحقا إلى انتساب الأطفال لأبيهم بدلا من انتسابهم لأمهم، والأب في هذه الحالة هو الأخ الأكبر الذي يصبح أبا لكل الأطفال الذين تلدهم الزوجة له ولإخوته الأصغر منه. ومما عزز هذه القناعة لدى مَكْلِيْنَن أن بعض قبائل الهنود الحمر في أمريكا لا يفرقون في التسمية بين الأب والعم ويدمجونهم تحت مصطلح قرابي واحد مما يشير إلى توقع وراثة الأخ لزوجة أخيه وبالتالي فإن الأبناء توقعا منهم لهذه الحالة ينادونه أبي بدلا من عمي.

ويرجع مَكْلِيْنَن السبب في التحول من خط الأمومة إلى خط الأبوة في تتبع النسب إلى الانتقال من حياة الصيد والجمع والالتقاط التي تقوم على الترحال إلى حياة الزراعة التي عادة ما يقوم بها الرجال وما تبع ذلك من الاستقرار وملكية الأرض التي صار الآباء يورثونها لأبنائهم مثلما يورثونهم المعدات والمهارات اللازمة لمزاولة الزراعة.

وقد استمر الزواج من خارج الجماعة حتى بعد اختفاء وأد البنات وخطف الزوجات، لأنه أصبح عادة واكتسب نوعا من القدسية. أما الزواج الداخلي فلا يأتي إلا في مراحل لاحقة هو والزواج الأحادي. التحول من النسب الأمومي إلى النسب الأبوي يؤدي إلى تجانس الجماعة، وهذا بدوره يقود إلى تكريس الوعي بالانتماء وتعزيز الهوية وتبلور مفاهيم عراقة النسب ونقاء الدم. عند هذه المرحلة يبدأ أفراد الجماعة يستنكفون الزواج من جماعات أخرى يشكون في عراقتها ويعتبرونها أدنى منهم نسبا ولذلك يتجهون للزواج

من داخل جماعتهم.

بهذه الطريقة استطاع مَكْلِيْنَن أن يربط بين وأد البنات وخطف الزوجات والزواج الخارجي الذي كان هو أول من أطلق عليه مسمى exogomy، كما كان هو أول من أطلق على الزواج الداخلي مسمى endogomy، وأصبح هذا المصطلحان من المصطلحات الأنثروبولوجية الرائجة.

ومن الذين تبنّوا آراء مَكْلِيْنَن الأسكتلندي أسكتلندي آخر هو وِلْيَم رابَرْتْصُن سْمِث (١٨٤٦–١٨٩٤) William Robrtson Smith الذي حاول في كتابه **القرابة والزواج في بلاد العرب القديمة** *Kinship and Marriage in Early Arabia* (1885) أن يطبق نظرية مَكْلِيْنَن على النسق القرابي والأنساب عند القبائل العربية القديمة وأن يطبق نظريته عن الطوطمية في كتابه الآخر **ديانة الساميين** *The Religion of the Semites* (1889). ونفصل القول في آراء رابَرْتْصُن سْمِث في فصل مستقل نعقده لهذا الغرض.

وتتميز أبحاث مَكْلِيْنَن عن من سبقوه في عدم تركيزه فقط على المصادر الكلاسيكية وإنما الاستفادة بشكل أساسي من المعلومات الإثنوغرافية التي بدأت تتراكم لدى الأوربيين عن المجتمعات البدائية من سكان أستراليا الأصليين والهنود الحمر والقبائل الأفريقية، وبذلك تكون منهجيته أقرب إلى المنهجية الأنثروبولوجية المقارنة. كما يكمن تميزه في أنه هو أول من نبه إلى العلاقة بين النسق الديني والنسق الاجتماعي في ربطه بين الطوطمية والنظم العشائرية، وهو أول من حاول الربط بين الظواهر الاجتماعية ومحاولة تفسيرها تفسيرا اجتماعيا وظيفيا من خلال هذا الترابط. وقد بني مَكْلِيْنَن آراءه بهذا الخصوص وفقا لمنهجية علمية تسندها حقائق إثنوغرافية وليس على تخمينات فلسفية، كما يشهد له بذلك إدوارد تايْلُر وإفانزبْرِتْشارد وغيرهم (Riviere 1970: xxxvii, xliii-xliv).

إلا أن آراء مَكْلِيْنَن لم تسلم من الانتقادات وكان أخطرها تلك التي وجهها له هربرت سْبِنْسَر وستانيلاند ويْك C Staniland Wake. تقول هذه الانتقادات إن نسبة وفيات الرجال في المجتمع البدائي جراء تعرضهم للمخاطر بحكم طبيعة حياتهم وما يتهددهم من أخطار تكاد توازي نسبة وفيات الإناث جراء الوأد، مما يعني عدم وجود نقص في الإناث. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه إذا كانت كل الجماعات في تلك المرحلة تمارس وأد البنات فإنها كلها بالتالي ستعاني من نقص الإناث بحيث لا يمكن لأي منها أن يسد ما يعانيه من نقص عن طريق خطف النساء من المجتمعات الأخرى التي تمارس الوأد بنفس الطريقة وبالتالي لا تتوفر أصلا لديهم نساء لخطفها (Needham 1967b: xxxiii). ويقول ويْك أيضا إن المجتمعات التي تمارس تعدد الأزواج لا تمارس وأد البنات، كما تفترض نظرية مَكْلِيْنَن، ولا تعاني إطلاقا من نقص النساء كما تشهد بذلك مجتمعات التبت ومجتمعات النايار. الفقر وشح الموارد هو الذي يدفع هذه المجتمعات إلى ممارسة تعدد الزوجات. وفي المجتمعات التي تتزوج بالخطف يُتَوَقّع أن يتم تتبع النسب فيها من الخط الأمومي، كما يقول مَكْلِيْنَن، إلا أن ذلك يعني أن الأبناء سينتمون إلى عشيرة الأم التي هي في حالة عداء مع الآباء، علاوة على أن منزلة الزوجات المخطوفات ستكون منزلة وضيعة لا يتشرف الآباء بأن ينتسب أبناءهم لهن (Needham 1967b: xxi-xxii, xxiv).

كما دخل مَكْلِيْنَن في جدل متبادل مع مين حول أولية النسب الأمومي على النسب الأبوي وهذا ما يعطي عمل مين قيمة إضافية حيث أن ذلك العمل هو الذي حفز مَكْلِيْنَن للرد عليه والخروج بنظريته المعارضة. فالثقافات الكلاسيكية في بلاد اليونان والرومان التي بنى عليها مين طروحاته وكذلك النموذج الأبوي للعائلة كما يرد

في قصة آدم وحواء في نصوص العهد القديم تأتي في مرحلة متأخرة جدا في مسيرة التطور الثقافي لذا فهي لا تمثل البدايات الحقيقية لتطور الجنس البشري، مما يبين الخلط عند مين بين ما هو قديم زمنيا وبين ما هو بدائي ثقافيا واجتماعيا. فحضارة وادي النيل وبلاد الرافدين قديمة لكنها ليست بدائية، بينما ثقافة سكان أستراليا الأصليين والهنود الحمر بدائية لكنها ليست قديمة. والجنس الآري الذي تدور حوله أبحاث مين لا يظهر أصلا إلا في مرحلة متأخرة من مراحل تطور الجنس البشري. وهكذا لم يكن مين على دراية بمستجدات الكشوف الإثنوغرافية عن الثقافات البدائية، كما لم يكن على دراية بمستجدات الكشوف الأثرية التي مدت من عمر الأرض ووجود الجنس البشري ليصل إلى مئات الآلاف، بل ملايين السنين، عوضا عن ستة الاف سنة التي كان يقول بها رئيس الأساقفة الإيرلندي جيمز أَشَر James Ussher. هذا عدا أن مَكْلِيْنَن يخالف مين في متابعته للرأي السائد الذي يقول بأن العائلة هي الأساس الذي قام عليه المجتمع الإنساني، فهو يرى أن العائلة كمؤسسة اجتماعية لا تأتي إلا في مرحلة تطورية لاحقة وبعد أن يودع الإنسان مرحلة الإباحية الجنسية أولا ثم الزواج الجماعي الذي ينتمي فيه الأطفال للعشيرة ككل وليس للعائلة التي لم تكن قد وجدت بعد.

إلا أن مناكفات مَكْلِيْنَن مع لِوِس هنري مورغان، الذي سنتطرق حالا لمساهماته في مجال دراسة الأنساق القرابية، حول حقيقة المصطلحات القرابية قد غطت على مناكفاته مع مين. يتفق مَكْلِيْنَن ومين في تخطئة لِوِس هنري مورغَن في زعمه أن مصطلحات القرابة تشير تحديدا إلى علاقات القربى بالمعنى البيولوجي–الجنيولوجي، بمعنى أن مصطلحات القرابة، وفق ما يرى مورغان، ليست إلا انعكاسا مباشرا لنظم الزواج والإنجاب. فهو لا يفرق مثلا بين استخدام كلمة أم أو أب من باب التأدب واحترام المخاطب ومنزلته بمنزلة الأب أو الأم وبين استخدامها للإشارة إلى الوالد والوالدة بالمعنى البيولوجي. ولذا بادر الكثير من الباحثين إلى تخطئة مورغان، بما فيهم مين ومَكْلِيْنَن الذين كانا يريان أن المصطلحات القرابية لا تعدو أحيانا أن تكون مؤشرات تدل على مكانة الشخص الاجتماعية بالنسبة للشخص الآخر الذي يتحدث إليه وليس علاقته القرابية، وأحيانا أخرى تكون من ملاطفات التخاطب المهذبة التي يلجأ لها المتخاطبون الذين لا يمتون لبعضهم بصلة القرابة، خصوصا وأن الناس في المجتمعات البدائية عادة يتحاشون استخدام الأسماء الشخصية لما يتعلق بذلك الاستخدام في اعتقادهم من تبعات ومؤثرات سحرية. فنحن العرب مثلا نخاطب الرجل الكبير ونقول له ياعم دون أن نخلط في أذهاننا بينه وبين العم الحقيقي الذي هو أخو الأب، كذلك المسيحي حينما يخاطب الخوري بكلمة أبونا فهو لا يعني بذلك أنه يعتبره والده الذي أنجبه.

لِوِس هنري مورغان

لا شك أن جميع هذه الجهود التي تحدثنا عنها تركت آثارها الملموسة على مسيرة الدراسات الأنثروبولوجية اللاحقة. فمحاولة باكْهوفن لتتبع أصل العائلة والمجتمع تعد أول محاولة من نوعها للخروج عن التفكير السائد كما ورد في الكتب المقدسة بخصوص قصة آدم وحواء وكما بلوره الفلاسفة ابتداء من أفلاطون وانتهاء بالفرنسي دي كولانج والإنجليزي مين، والذي يرى في العائلة الأبوية أساس التنظيم الاجتماعي. وبذا يكون باكْهوفن أول من هز القناعات الراسخة حول طبيعة العائلة ونبه إلى أن الزواج الأحادي والانتساب للأب أمورا طارئة جاءت مؤخرا لتحل محل أشكال أخرى سابقة عليها. كما نجح مَكْلِيْنَن في دحض الرأي

التقليدي السائد الذي تبناه الفلاسفة من أرسطو إلى هنري مين والذي يقول بأن العائلة الطبيعية المكونة من زوج وزوجة وأطفالهم هي البذرة الأولى والأساس الذي بدأ منه تكون المجتمع الإنساني، وإذا ما توفي الأب تولّى ابنه الأكبر شؤون العائلة. ومع مرور الوقت تنمو هذه العائلة ويكثر عدد أفرادها وتتفرع منها عوائل أخرى حتى تتحول من مجرد عائلة صغيرة إلى عشائر متعددة يجمعها الانتماء إلى سلف مشترك. ثم تتحد هذه العشائر ليتشكل منها الشعب أو الأمة. يقول مَكْلِيْنَن إن بداية المجتمع، على العكس من ذلك، كانت على شكل تجمع عشوائي أشبه بالقطيع horde الذي يفتقر لمفهوم الأبوّة والأمومة يتعاشر فيه الذكور والإناث بشكل بهيمي. ثم تأتي بعد ذلك مراحل لاحقة تبدأ فيها الجماعة بممارسة الزواج الخارجي الذي يؤدي إلى تبلور مفهوم النسب ومن ثم إلى تمايز القطيع إلى عشائر، وهذه بداية ظهور النظام العشائري الذي يقوم على مفهوم تحديد النسب والانتماء. أما العائلة فلا تأتي إلا في مراحل متأخرة من مراحل تطور المجتمع البشري.

لِوِس هنري مورغان
Lewis Henry Morgan

إلا أن معظم المؤرخين لحقل الأنثربولوجيا يُرجعون الفضل في تأسيس علم الأنساق القرابية كعلم مستقل إلى المحامي الأمريكي لِوِس هنري مورغَن (١٨١٨–١٨٨١) Lewis Henry Morgan. بحكم مولده في ولاية نيويورك أتيحت الفرصة لمورغان أن يحتك بقبيلة الأُرُكْواي Iroquois الهندية في وقت مبكر من حياته ويتعمق في دراسة ثقافتها وتنظيمها العائلي ونسقها القرابي، كما تبنى قضايا القبيلة وكرس خبرته القانونية للدفاع عن حقوقها في محاكم الدولة وأدان الظلم الواقع من البيض على الهنود الحمر. لذلك يمكن القول أن مورغَن تميز على من سبقوه، مثل باكْهوفن ومَكْلِيْنَن ومين، في اعتماده، إضافة إلى البحث المكتبي، على العمل الميداني والاحتكاك المباشر بالهنود الحمر.

لم يبدأ مورغَن أبحاثه عن الهنود الحمر بالنسق القرابي وإنما بمحاولة البحث عن أصولهم وجذورهم الأولى، أي من أين أتوا وكيف ظهروا في القارة الأمريكية وهل كلهم يرجعون إلى أرومة واحدة. لاحظ مورغَن في بداية دراسته لهنود الأُرُكْواي وبمحض الصدفة أن نظام القرابة عندهم نظام تصنيفي (انظر أدناه حول النظام التصنيفي classificatory والفرق بينه وبين النظام الوصفي descriptive) وأنه نظام أمومي ينتسب فيه الفرد لقبيلة أمه، لا لقبيلة أبيه. ولم يلبث مورغَن أن وجد نفس النظام القرابي التصنيفي عند قبيلة هنود الأُجِبوا Ojibwa، بالرغم من اختلافها عن الأُرُكْواي في اللغة وغيرها من الأنماط الثقافية والاجتماعية. ونظرا لما لنظم القرابة والعائلة من أهمية في المجتمع الإنساني خلص مورغَن إلى أن هذا التشابه يعني تجذر هذا النظام القرابي مما يشير إلى أن القبيلتين انحدرتا في الزمن الغابر من أصل واحد (Morgan 1997: 3-4). وقد بنى مورغَن فرضيته هذه على اعتبار أن نظم القرابة، كما تبين له من دراسته للأُرُكْواي والأُجِبوا، هي أكثر عناصر الثقافة ثباتا وعصيانا على التغير بحيث أنها تبقى على حالها حتى بعد تغير اللغة ومفردات القرابة نفسها. صحيح أن الأُرُكْواي والأُجِبوا، بحكم اختلاف اللغة، يستخدم كل منهما مصطلحات تختلف عن الآخر للإشارة إلى الأقارب أو مخاطبتهم، لكن المهم هو أن النظام القرابي واحد، كلاهما نظام تصنيفي يدمج الأب والعم في مصطلح واحد والأم والخالة في مصطلح واحد والأخوة وأبناء العم وأبناء الخالة في

مصطلح واحد، بمعنى أن المنازل القرابية التي تشير لها المصطلحات اللغوية هي هي بالرغم من اختلاف المصطلحات ذاتها نظرا لاختلاف اللغات. وهنا تبادر إلى ذهنه أنه لو وجد أن قبائل الهنود الحمر كلها تشترك في هذا النسق القرابي فإن هذا يعني بالتأكيد انحدارها كلها من أصل واحد. ثم لو ثبت وجود النسق نفسه في شرق آسيا وشمالها فإن هذا يعزز فرضية أن الهنود الحمر انحدروا أصلا من آسيا إلى أمريكا الشمالية عبر مضيق بارنغ Bering Strait قبل انفصال قارة شمال أمريكا من آسيا. وللتأكد من صحة هذه الفرضية قام مورغَن بدعم مالي من معهد السمثسونيان Smithsonian Institution بتصميم استبيان من سبع صفحات اشتمل على أكثر من مئتي سؤال تتعلق بمختلف جوانب القرابة ومصطلحاتها وزعه في أنحاء أمريكا وعلى السفارات والملحقيات ومراكز التبشير في مختلف مناطق وبلدان شرق آسيا.

أثبتت الإجابات التي حصل عليها مورغَن على استبيانه أن التاميل Tamil في القارة الهندية يتبعون نفس النسق القرابي الذي وجده عند الهنود الحمر وهذا مما عزز لديه فرضية انحدار هنود أمريكا من آسيا. لكن الإجابات عموما كانت من النوع الذي أشعل حماسه وشجعه وفتح عينيه على ما تتضمنه من مسائل لم تكن واردة في ذهنه من قبل. فقد لاحظ مثلا أن تنظيم قبيلة الأُرُكْواي الهندية لا يختلف عن تنظيم قبائل الإغريق والرومان حيث نجد في كلتا الحالتين أن مجموعة من العشائر *gentes* (مفردها *gens*) تتحد في مجموعة من القبائل *phratries* لتؤلف في مجموعها رابطة confederacy. كما لاحظ أن مصطلح *gens* يقابله مصلح *ganas* في السنسكريتية ومصطلح *sept* في أيرلندا ومصطلح *clan* في أسْكتلاندا Scotland. هذا أوحى له بأن هذا هو التنظيم السياسي البدائي الذي لا بد أن يمر به أي مجتمع إنساني قبل أن يصل إلى مرحلة المدنية والسلطة السياسية المتطورة.

بعدما قام مورغَن بتصنيف المادة التي حصل عليها من أبحاثه الميدانية ومن الاستبيانات التي وزعها على أطراف المعمورة تحمس لعرض آرائه واستنتاجاته في إطار النظرية التطورية التي كانت هي المهيمنة على الأجواء الفكرية آنذاك وبدأ بحثه يتخذ منحى آخر يتمثل في تتبع مراحل التطور البشري في مراحل متتالية تبدأ بمرحلة الإباحية الجنسية مرورا بمرحلة تزاوج الأخوة والأخوات وانتهاء بمرحلة الأحادية الزوجية والعائلة النووية. وقد بسط استنتاجاته في كتابه **نظم قرابة الدم والمصاهرة في العائلة البشرية** *Systems of Consanguinity and Affinity of the Human Family* (1871) والذي يعد أول كتاب يتناول موضوع أنساق القرابة والزواج تحديدا ونشره المعهد السمثسوني مشكلا بذلك المجلد السابع عشر ضمن سلسلة المعهد "مساهمات المعهد السمثسوني في المعرفة" *Smithsonian Contribution to knowledge*. هذا الكتاب هو الذي أسس لهذا العلم الجديد ومن بعده توالت الدراسات والأبحاث في مختلف فروع هذا الحقل من حقول الدراسات الأنثروبولوجية، بما في ذلك كتاب مورغَن الثاني **المجتمع القديم** *Ancient Society* (1877).

كان النموذج النظري السائد آنذاك هو، كما قلنا، النموذج التطوري الذي يحاول رسم حركة الجنس البشري في مسار تطوري صاعد نحو المدنية والتقدم، إضافة إلى النموذج الفيلولوجي الذي يحاول الربط بين شعوب الأرض والسلالات البشرية على الرغم من اختلافها وتعددها وتصنيفها في عدد محدود من العوائل اللغوية، مثل العائلة السامية والعائلة الآرية، بحكم ما بينها من علاقات لغوية يتم تحديدها عن طريق البحث التاريخي اللغوي المقارن. فلو أننا مثلا أخذنا مختلف اللغات التي تنتمي للعائلة السامية مثل العربية والعبرية والآرامية وغيرها لوجدناها تشترك في العديد من الخصائص النحوية والصرفية والصوتية

وبحصيلة من المفردات والجذور الصميمية التي من ضمنها بعض مفردات القرابة الأولية مثل أب وأم وابن وما في حكمها، مما يؤكد على علاقة هذه اللغات بعضها ببعضها وأن من يتكلمونها كانوا في الماضي البعيد يشكلون شعبا واحدا ثم تفرقوا وتباعدوا وتشعّبوا، وتبعا لذلك بدأت هذه اللغات تبتعد عن بعضها البعض وتنفصل أولا إلى لهجات ثم إلى لغات مستقلة. ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن أصل اللغات الهندوأوربية التي كان يتكلمها الشعب الآري القديم قبل أن يتفرع إلى شعوب مختلفة كل منها يتكلم لغته الخاصة. هذه المنهجية الفيلولوجية التي ابتدعها فْرِدْرِك ماكس مْيُولر (١٨٢٣–١٩٠٠) Friedrich Max Muller وفصلها في مقاله "علم الميثولوجيا المقارن" Comparative Mythology (1856) تفيدنا أولا في إعادة البناء اللغوي ومن خلال ذلك إعادة البناء الثقافي والاجتماعي للمجتمعات المنقرضة في حالتها البدائية. فحصيلة المفردات المشتركة التي لا تزال محتفظة بجذورها الأصلية وحقولها الدلالية في مختلف اللغات الهندوأوربية هي التي نستطيع أن نستدل منها على الثقافة الآرية البدائية، إذ لا بد أنها تعود إلى المرحلة التي سبقت تشتت الجنس الآري وتشظيه إلى شعوب مختلفة ومتباعدة. فلو وجدنا مثلا أن كل هذه اللغات تشتمل على جذر كلمة "باب" فهذا يعني أولا قدم هذه الكلمة، وثانيا أن الشعب الآري البدائي كان شعبا مستقرا يسكن بيوتا لها أبواب. من ناحية أخرى، بما أن كل لغة من اللغات الهندوأوربية تحتوي على جذر مختلف لكلمة "بحر" فهذا يعني أن الشعب الأصلي عاش في رقعة داخلية جنوب شرق آسيا بعيدا عن سواحل البحار.

واقتداء بالمنهج الفيلولوجي خطرت على بال مورغَن فكرة مؤداها أنه إذا كانت أنساق القرابة على هذا القدر من الانتشار وعلى هذا القدر من الثبات فلا بد أنها تعود إلى أزمنة سحيقة تسبق انفصال العوائل اللغوية مما يعني أنه من خلال دراستها دراسة مقارنة يمكننا ليس فقط إعادة بناء التاريخ وتتبع مراحل تطور الجنس البشري من مراحل موغلة في البدائية وإنما، تبعا لذلك، تحديد علاقات بين العوائل اللغوية الكبرى يقف المنهج الفيلولوجي عاجزا عن تحديدها، وبالتالي الربط بين هذه العوائل. لقد استطاع المنهج الفيلولوجي مثلا من إيجاد علاقة تاريخية بين مختلف شعوب العائلة السامية من جهة وشعوب العائلة الآرية من جهة أخرى، لكنه وقف عاجزا عن إيجاد أي علاقة بين العائلتين، وهنا يمكن الاستعانة بدراسة الأنساق القرابية لإكمال ما بدأته الفيلولوجيا. فالمصطلحات القرابية، كمادة لغوية وألفاظ تدخل في نطاق الدراسات الفيلولوجية، هي، في نظر مورغان، أكثر عرضة للتغير من الحقول الدلالية، أي العلاقات القرابية، التي تشير إليها هذه المصطلحات والتي تدخل في نطاق دراسة الأنساق القرابية. وهكذا صمم مورغَن أن ينقل مجال المقارنة من مستوى المقارنة اللفظية إلى مستوى المقارنة السيمانطيقية، أي الدلالية (Morgan 1997: xxi-xxii).

لقد تبين لمورغان من خلال الاستبيانات التي بعث بها لمختلف القارات ومن المسوحات التي أجراها على مختلف القبائل والشعوب أنه على الرغم من تباين الثقافات والمجتمعات وتباعدها تاريخيا وجغرافيا وتوزعها على مختلف القارات ومختلف الحقب التاريخية وبالرغم من عدد لغات البشر الذي يتعدى الآلاف فإن آليات فرز الخانات القرابية وتصنيف الأقارب في منازل قرابية تكاد تنحصر في أنماط محدودة تعتمد أساسا على المصطلحات المستخدمة في كل نمط للإشارة إلى منازل الأقارب من الدرجة الأولى والثانية من جيل المتكلم وجيل الوالدين. هذه الأنماط تتفرع أساسا من نسقين رئيسيين هما النسق التصنيفي والنسق التوصيفي. هذا يعني أن العوائل اللغوية التي تمكن الفيلولوجيون من تصنيف شعوب الأرض تحتها يمكن ضمها هي ذاتها تحت نسقين قرابيين لا غير، هما النسق التصنيفي والنسق التوصيفي. وهكذا اقتنع مورغَن

أن منهجيته استطاعت أن تجسر الهوة التي لم يتمكن المنهج الفيلولوجي من ردمها بين العوائل اللغوية. قد تختلف مصطلحات القرابة كمادة لغوية مثلا بين العائلتين السامية والآرية وتفرق بينهما لكن النسق القرابي الذي يقبع وراء المصطلحات اللفظية يوحدها في نسق قرابي واحد هو النسق التوصيفي. أي أن العائلتين كانتا في الزمن السحيق تشكلان عائلة واحدة لكنهما تشعبتا فيما بعد إلى عائلتين لغويتين مع احتفاظهما بنفس النسق القرابي، لأن اللغة أسرع في تغيرها من النسق القرابي الذي يتميز بالثبات مقارنة باللغة.

علاقات القرابة علاقات قديمة قدم العائلة، ومهما اختلفت أو تبدلت الطرق التي يلجأ لها البشر في تصنيف الأقارب فإنه يقف خلف هذه الطرق المختلفة مبدأ حسابي واحد وثابت لا يتغير بتغيرها ولا يختلف باختلافها لأن أساسه طبيعي وليس ثقافي، كما يقول مورغان. فهو يأتي كنتيجة طبيعية لعملية التوالد المنبثقة من علاقات التزاوج والاتصال الجنسي بين الذكر والأنثى. تبدأ علاقات القربى هذه بعلاقة جنسية بين زوجين، ثم يرزق الزوجان بأولاد وأحفاد والأحفاد بدورهم يرزقون كل منهم بأولاد وأحفاد وهكذا على مر العصور وتتابع الأجيال. وكلما تقدم الزمن كلما تشعب نسل ذينك الزوجين وكلما تفرعت العلاقات الكتفية التي تربط أحفادهم وأحفاد أحفادهم ببعضهم البعض. فمع كل جيل نازل تنشطر خطوط جانبية جديدة من خطوط سابقة لها وبذلك تبتعد القرابة الكتفية درجة إضافية عن الخط العمودي الذي انبثقت منه أساسا جميع الخطوط الكتفية السابقة. ومع مرور السنين يزداد عمق الخط العمودي الأساسي المنحدر من الزوجين الأوائل ويزداد عدد الخطوط الجانبية المنبثقة عنه والتي كل منها بدوره يشكل خطا عموديا تتشعب منه خطوط أخرى من الأكتاف التي يزداد تباعدها عن بعضها البعض مع ازدياد العمق الزمني. بهذه الطريقة يتكون لدينا مشجر نسبي تتشابك أفنانه وأغصانه وفروعه ويترابط من خلاله كل الأخلاف المنحدرين من الزوجين الأوائل في سلاسل تناسلية تتقاطع وتتشكل حلقاتها من العلاقات الزوجية اللاحقة التي تشبّك بين العوائل النووية وما ينتج عنها من توالد بحيث يحتسب كل مولود كما لو كان خانة قرابية تربط بين قريبين، وعدد الخانات القرابية التي تفصل بين قريب وآخر هي التي تحدد مسافة القربى بينهما. ومع كل جيل لاحق تزداد المسافات القرابية التي تفصل بين كل خط عمودي وخطوط الأكتاف المتفرعة عنه إلى أن تصل بعد مئات السنين إلى درجة يصعب معها تحديد طبيعة العلاقة التي تربط بين الأقارب المنحدرين من الأسلاف الذين ابتدأنا منهم أو تتبعها أو حتى العلم بوجودها. لكنها مهما طال الزمن ومهما تباعدت وتفرعت تلتقي في نهاية المطاف في أصل واحد، هو الزوجين الذين بدأنا منهما، ويمكننا –لو أردنا– تتبع علاقات الدم عبر القرون بين هؤلاء الأقرباء وتحديدها، من الناحية النظرية على الأقل، بل حتى من الناحية العملية لو توفرت السجلات العائلية الدقيقة والكاملة التي يمكن الاعتماد عليها في تحديد درجات القربى وترابط العوائل من خلال عمليات التزاوج والتوالد، حيث لا يتطلب الأمر أكثر من القيام بعملية حسابية يمكن من خلالها أن نحصي صعودا على الخط العمودي ثم نزولا من خطوط الأكتاف المتشعبة منه عدد الأقارب الذين يفصلون بين المتكلم والقريب الآخر ومن ثم تحديد درجة القربى بينهما حسابيا ومسافتها قربا أو بعدا. هذه الحقيقة الأساسية، في نظر مورغان، لا ينفيها كون صلة القربى بين البشر تضعف أو تُنسى أو يتم تجاهلها كلما ابتعدنا عن الأصل الذي بدأت منه أساسا (Morgan 1997: 10-11).

النسق التوصيفي هو النسق الذي تتميز به أنماط القرابة في المجتمعات الآرية والمجتمعات السامية التي تفرق بين مصطلحات القرابة العمودية من ناحية، مثل الجد والجدة والأب والأم والإبن والبنت والحفيد

والحفيدة، وبين مصطلحات القرابة الكتفية، من ناحية أخرى، مثل العمومة والخؤولة وأبناء العمومة وأبناء الخؤولة. في النسق التوصيفي يطلق المتكلم على أمه مصطلحا غير ذلك الذي يطلقه على خالته أو عمته وعلى أبيه مصطلحا غير ذلك الذي يطلقه على عمه أو خاله وعلى أبنائه هو مصطلحا غير ذلك الذي يطلقه على أبناء إخوانه وأخواته وعلى إخوته وأخواته مصطلحات غير تلك التي يطلقها على أبناء وبنات خؤولته وعمومته. النسق التوصيفي، في نظر مورغان، هو النسق الأكثر تطورا لأنه، كما يقول، نسق طبيعي يتساوق مع الحقائق البيولوجية ويحدد المسافات القرابية تحديدا حسابيا أقرب إلى الدقة ويفرز العلاقات العمودية عن العلاقات الكتفية ويبقى كل علاقة من علاقات القربى قائمة بذاتها مستقلة عن غيرها، وهو بذلك يعكس علاقة الدم الحقيقية، أي العلاقات البيولوجية بين الأقارب ويتمشى معها. مصطلحات القربى في النسق التوصيفي متسقة تماما مع المبدأ الحسابي لأنها تبدأ بمصطلحات القرابة الأولية primary terms المستخدمة في العائلة النووية (زوج، زوجة، أب، أم، ابن، بنت، أخ، أخت) والتي لا تستخدم للإشارة إلى الأقارب خارج العائلة النووية. وإذا أراد المتكلم أن يحدد تحديدا دقيقا علاقة الدم ودرجة القربى مع أي قريب خارج العائلة النووية فإنه يلجأ عادة إلى مصطلحات القرابة الأولية التي تشير إلى الأقرباء المعترضين بين المتكلم وقريبه ليربط بينها بالتتالي مصطلحا بعد الآخر بطريقة تراكمية في سلسلة تتصل حلقاتها بدون انقطاع بدءا، في اللغة الإنجليزية، من المتكلم مرورا بكل الأقارب المعترضين حسب درجاتهم وصولا إلى القريب الآخر، كأن تقول عن فلان إنه father's father's sister's son (FFZS) أو بدءا، في اللغة العربية، من القريب الآخر مرورا بكل الأقارب المعترضين وصولا إلى المتكلم، كأن تقول عن فلان إنه ابن أخ أم والد شقيقة . . . الخ. هذه العملية الحسابية، كما يقول مورغان، عملية تتفق مع الحقائق البيولوجية الثابتة وطبيعة التناسل التي لا تختلف من مجتمع لآخر، ولا حتى بين الإنسان والكائنات الأخرى (Morgan 1997: 468-9).

أما النسق التصنيفي، والذي تتميز به الكثير من المجتمعات البدائية، فإنه، يقول مورغان، على خلاف النسق التوصيفي، لا يعكس علاقة الدم الحقيقية. فهو أولا يتّبع النسب الأحادي، أي يتتبع النسب من خط قرابي واحد، إما الخط الأمومي أو الخط الأبوي، ويغفل العلاقة مع الخط الآخر وكأنها لم تكن، كما أنه يدمج اصطلاحيا العلاقات العمودية مع بعض أو مع كل العلاقات الكتفية، علاوة على أنه يستخدم مصطلحات القرابة الأولية داخل العائلة النووية وخارجها دون مراعاة لدرجات القربى والمسافة القرابية التي تفصل بين قريب وآخر مخالفا بذلك المبدأ الحسابي، كأن تدمج أباك مع أخيه (عمك) وتطلق عليهما نفس المصطلح القرابي أو تدمج أمك مع أختها (خالتك) في نفس المصطلح القرابي أو أبناء عمك وأبناء خالتك مع إخوانك أو أبناء أخيك (إن كنت ذكرا) مع أبنائك أو أبناء أختك (إن كنت أنثى) مع أبنائك.

يتوقف تحديد المصطلح في الأنساق التصنيفية على ما إذا كان القريبان المعترضان بين المتكلم وقريبه من نفس الجنس، أي كلاهما ذكر كالأب والعم أو كلاهما أنثى كالأم والخالة، أو إذا كانا من جنسين مختلفين كالأب والعمة أو الأم والخال. المتكلم في هذا النمط يدمج القريبين المعترضين في نفس المصطلح إذا اتفقا في الجنس ويضعهما في نفس المنزلة القرابية كأن يصنف أبيه وعمه في منزلة قرابية واحدة ويدمجهما في مصطلح قرابي واحد يختلف عن المصطلح الذي يطلقه على خاله، كما يصنف الأم مع الخالة في منزلة قرابية واحدة ويدمجهما في مصطلح قرابي واحد يختلف عن المصطلح الذي يطلقه على عمته. كما يعتبر أبناء وبنات عمه وخالته، أو ما يطلق عليهم parallel cousins، في عداد الإخوة ويصنفهم في نفس المنزلة القرابية

ويدمجهم في نفس المصطلح القرابي الذي يخاطب به أخيه أو أخته، بينما يطلق مصطلحات أخرى على أبناء وبنات خاله وأبناء وبنات عمته، أو ما يقال لهم cross cousins. وتصنف الأنثى أبناء وبنات أختها مع أبنائها وبناتها في نفس المنزلة القرابية وتدمجهم في نفس المصطلح القرابي بينما تطلق مصطلحات أخرى على أبناء وبنات أخيها. ويصنف الأخ أبناء وبنات أخيه في نفس المنزلة القرابية مع أبنائه وبناته ويدمجهم في نفس المصطلح القرابي بينما يطلق على أبناء وبنات أخته مصطلحات أخرى.

بعبارة أخرى، في الأنساق التصنيفية التي تتبع النسب الأحادي نجد أن جنس القريب وانتمائه العشائري يحددان المصطلح الذي يطلقه عليه المتكلم. فالأم واختها (خالة المتكلم) وأخوها (خال المتكلم) ينتمون إلى عشيرة واحدة تختلف عن عشيرة الأب وأخيه (عم المتكلم) واخته (عمة المتكلم) الذين ينتمون بدورهم إلى عشيرة واحدة. وحيث أن الأم والخالة من نفس العشيرة ومن نفس الجنس (جنس النساء) لذا يطلق عليهما المتكلم نفس المصطلح بينما ينتمي أخوهما (خال المتكلم)، بالرغم من انتمائه لنفس العشيرة، إلى جنس مختلف عنهما (جنس الرجال) لذا يتخذ مصطلحا مختلفا، مثلما يطلق المتكلم على عمته مصطلحا مختلفا بالرغم من انتمائها لنفس الجنس لأنها تنتمي إلى عشيرة أخرى. كذلك الأب والعم يتفقان في المصطلح لأنهما من نفس الجنس ومن نفس العشيرة بينما تنتمي أختهما (العمة) إلى جنس مختلف عنهما لذا يطلق عليها المتكلم مصطلحا مختلفا وينتمي الخال إلى عشيرة مختلفة عنهما لذا يطلق عليه المتكلم مصطلحا مختلفا. ويمكن التعبير عن ذلك بطريقة أخرى بالقول أننا نميز اصطلاحيا بين أخت الأم وأخت الأب بحكم أن كلا منهما تنتمي لعشيرة غير الأخرى، مثلما نميز بين أخي الأم وأخي الأب لنفس السبب.

وعلاقات القرابة، كما سبق وأن ألمحنا، تتسم بالاتساق والانتظام، لذا مهما بعدت المسافة البيولوجية في الأنساق التصنيفية بين المتكلم وقريبه ومهما كان عدد الأقرباء المعترضين بينهما فإن أي امرأة في هذا النسق التصنيفي يدعوها المتكلم "أمي" سوف يدعو زوجها "أبي"، وبالمقابل فإن هذه الأنثى وزوجها سوف يدعون المتكلم "ابني"، وأي رجل يدعوه "أبي" سوف يدعو زوجته "أمي" وابنه "أخي" وابنته "أختي"، ويطلق مصطلح ابن على ابناء كل من يطلق عليهم مصطلح أخ أو أخت وكل من يسميه خال سوف يسمي ولده ابن خال وكل من يسميها بنت خالة سوف يسمي أمها خالة. كل رجل يناديه أبوك "أخي" سوف تناديه أنت "أبي" وكل امرأة تناديها أمك "أختي" سوف تناديها أنت "أمي" وأبناء أولئك ستناديهم "أخي" أو "أختي" وأبناء هولاء ستناديهم "إبني" أو "بنتي". كما أن مصطلحات القرابة، كما قلنا سابقا، كل منها يحدد معنى الآخر ولا معنى لأي منها بدون البقية مما يؤكد ترابطها وظيفيا وبنيويا، فهي تعادلية أو تبادلية بما يتناسب مع تعادلية أو تبادلية المكانات والأدوار المناطة بها. تعادلية بمعنى أن كل من تناديه ياأبي سيناديك يابني ومن تناديه ياخالي سيناديك يابن أختي ومن يدعوك أخي تدعوه أخي ومن يدعوك يابن عمي تدعوه يابن عمي. فإذا أنت دمجت عمك مع أبيك وناديته ياأبي فإن المقابل لذلك بطبيعة الحال أن عمك يدمجك مع أبنائه ويناديك يابني، وكذلك الحال مع خالتك، وبذلك يصبح أبناء عمك وأبناء خالتك في عداد الإخوة لك. وإذا دمجت أبناء عمك مع إخوتك من أمك وأبيك وناديتهم إخوتي فأنهم سينادونك أخينا، وكذلك الحال مع أبناء الخالة.

وهكذا فإن الأنساق التصنيفية عموما، سواء كانت أبوية النسب أو أمومية النسب، تعمم مصطلحات القرابة الأولية مثل أب وأم وأخ وأخت وابن وبنت على أقرباء الدم من الدرجة الثانية فما أبعد ولكن وفق القواعد والضوابط المحددة أعلاه، كأن تطلق على أبناء أخيك نفس المصطلحات التي تطلقها على أبنائك

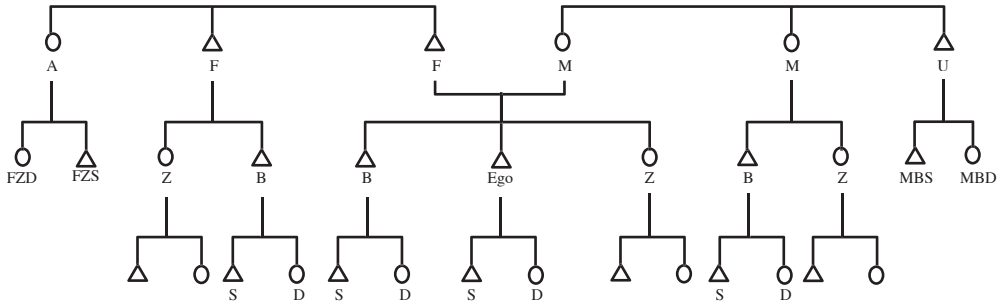

تطبيق نظام القرابة التصنيفي عبر ثلاثة أجيال

وتطلق على عمك وعلى ابنائه نفس المصطلحات التي تطلقها على أبيك وعلى إخوانك، وتطلق على خالتك وعلى أبنائها نفس المصطلحات التي تطلقها على أمك وعلى إخوانك. وهكذا يوسع المتكلم نطاق مدلولات مصطلحات القرابة الأولية ويعممها دون مراعاة لمسافات قرابة الدم البيولوجية لتشمل كل أفراد عشيرته بحيث ينضوي كل واحد منهم تحت أحد هذه المصطلحات ويصبحون بذلك كلهم كما لو كانوا أقرباء له من الدرجة الأولى مهما بعدت المسافة البيولوجية بينه وبينهم (Morgan 1997: 469-75). وهذا أسهل بكثير من محاولة تحديد صلة القرابة بالشكل التتبعي المستخدم في الأنساق التوصيفية. فبدلا من أن أقول عن فلان إنه ابن عم أبي أقول عنه إنه أبي، وبدلا من أن أقول عن الآخر إنه ابن ابن الأخ لوالد أبي أقول عنه إنه أخي. فجدي وجد ابن عمي إخوة وأبناء الإخوة في النسق التصنيفي إخوة، أي أن أبي وابن عمه يصبحون إخوة وبالتالي أكون أنا وابن ابن عم أبي إخوة. فأبوك مثلا يطلق مصطلح أب على أخي أبيه الذي هو أخو جدك وبناء عليه يطلق مصطلح أخ على ابن الأخير الذي بدورك تطلق أنت عليه مصطلح أب، علما بأن هناك ثلاثة أقرباء يفصلون بينكما كما تطلق على ابنه مصطلح أخ علما بأن هناك أربعة أقرباء يفصلون بينكما. وهكذا يدمج المتكلم في النسق التصنيفي جميع أفراد عشيرته في درجات القرابة الأولية ويتعامل معهم بنفس الطريقة التي يتعامل بها مع أفراد عائلته النووية، بما يتبع ذلك من التزامات ومن مشاعر متبادلة وطقوس في التعامل والتخاطب.

في العشائر أحادية النسب يمكن تفسير دمج الإخوة إما مع أبناء العم الذين يفترض أنهم لا ينتمون لنفس العشيرة إن كانت العشيرة أمومية أو مع أبناء الخالة إن كانت العشيرة أبوية وكذلك دمج أبناء العمة مع أبناء الخالة في كلتا الحالتين من منطلق أن العشيرة تنشطر إلى شِقّين متزاوجتين moities، يمارسان الزواج التبادلي symmetrical connubial alliances، بمعنى أن الأب يتزوج من بنات نفس العشيرة التي يتزوج منها أبوه وأخوه وابنه والأم تتزوج من نفس أبناء العشيرة التي تتزوج منها أمها واختها وابنتها، وبالتالي فإن زوجة العم هي أخت الأم وأبنائها هم أبناء العم، وزوج الخالة هو أخو الأب وأبناؤه هم أبناء الخالة. بهذه الطريقة يحصل الاندماج بين أبناء الخؤولة وأبناء العمومة ومن ثم اندماج هؤلاء مع الإخوة (Barbeau

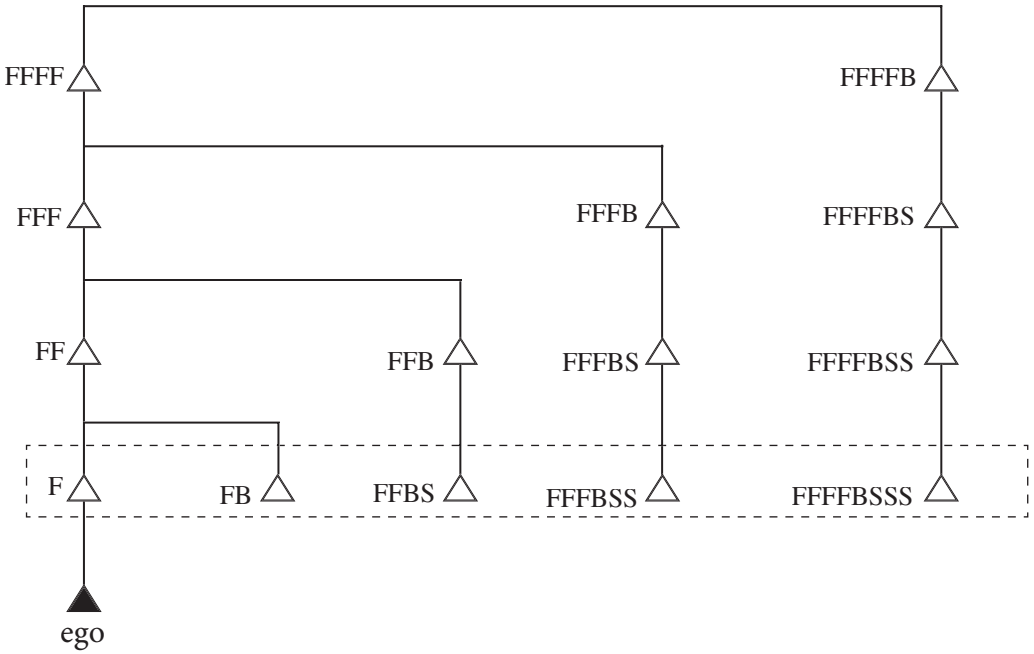

دمج أي مصطلح من مصطلحات القرابة العمودية مع أي مصطلح من مصطلحات القرابة الكتفية في أنساق القرابة التصنيفية يقوم على مبدأ ما يسميه رادْكْلِف براون (Radcliffe-Brown 1930/31: 44) تعادلية الأخوة وتعادلية الأخوات the principle of the equivalence of brothers. بمعنى أن نفس المصطلح الذي أطلقه على قريب ذكر أطلقه أيضا على أخيه، فأسمّي أخو أبي مثلا أبي، ونفس المصطلح الذي أطلقه على قريب أنثى أطلقه أيضا على أختها، فأسمي أخت أمي مثلا أمي، وأولاد أي رجل أدعوه أبي أو أولاد أي إمرأة أدعوها أمي هم إخوتي، وأبناء أي رجل أدعوه أخي (إن كنت ذكرا) أو امرأة أدعوها أختي (إن كنت أنثى) هم أبنائي وأنا أبيهم أو أمهم، وزوج أي إمرأة أدعوها أمي هو أبي وأنا ابنه، وزوجة أي رجل أدعوه أبي هي أمي وأنا ابنها، وهكذا بالنسبة لبقية المصطلحات. ولا حدود لدى أو مجال تطبيق هذا المبدأ. ومبدأ لا محدودية التطبيق هو ما يسميه رادْكْلِف براون the non-limitation of range. نوضح في الشكل أعلاه النتيجة المترتبة مثلا على تعميم مصطلح أب ليشمل أخا الأب كمثال على النتائج المترتبة على تعميم مصطلحات القرابة الأولية. أخو الأب FB ينزل منزلة الأب للأنا. أخو الجد (الذي هو أبو الأب) FFB ينزل منزلة الأب لأبي الأنا لذا فإن ابنه FFBS ينزل منزلة ابن أبي الأب، أي أخي الأب، أي الأب للأنا. أخو جد الأب FFFB ينزل منزلة جد الأب وابنه FFFBS ينزل منزلة أبي الأب وابن هذا FFFBSS ينزل منزلة أخي الأب، أي الأب للأنا. أخو جد الجد FFFB ينزل منزلة جد الجد وابنه FFFFBS ينزل منزلة أخي جد الأب، أي جده، وابنه FFFFBSS ينزل منزلة أبي الأب، وابن هذا FFFFBSSS ينزل منزلة أخي الأب، أي منزلة الأب للأنا. فكل الأقارب المؤطرين بالمستطيل المنقط هم بمنزلة الأب للأنا. ويمكن السير على هذا النهج إلى ما لا نهاية وتطبيقه على الأم وعلى كل مصطلحات القرابة الأولية.

(Murdock 1947; Kroeber 1909: 77-84; 1917). ويتعزز هذا الوضع المتمثل في دمج الأب مع العم أو الأم مع الخالة في نفس المصطلح لو افترضنا، إضافة إلى ما قلناه توًّا أن العشيرة تتبع في نفس الوقت شكلين من أشكال الزواج هما زواج الرجل من أخوات زوجته sorrorate والمرأة من إخوان زوجها polyandry. في مثل هذه الحالة يطلق الأبناء على أخت أمهم مسمى أم بما أنها هي أيضا زوجة للأب، أو على الأقل تحسبا لهذه الاحتمالية، كما يطلق الأبناء على أخي أبيهم مسمى أب لنفس السبب (Harris 1971: 350-4; Lowie 1960: 64). لاحظ أن هذه الأشكال من الزواج تؤدي إلى دمج مصطلحات قرابة الدم مع مصطلحات قرابة المصاهرة. ويحدث ما يشبه ذلك في الثقافة العربية حينما تدعو زوجتك بنت عمي وتدعو أبوها عمي وأمها خالتي، وذلك على افتراض أن العربي عادة يقترن بابنة عمه. كذلك إطلاق الأبناء على زوجة أبيهم مصطلح

خالتي قد يوحي بإمكانية زواج الرجل من أخت زوجته. وهذا مما يؤكد على الترابط الوظيفي بين أنساق النسب وأشكال الزواج.

ولا بد من التأكيد على أن اطلاق كلمة أم أو أب أو أخ لا تعني لهم ما تعني لنا تحديدا، وقد لا تعني أحيانا أكثر من أن القريب المشار إليه ينتمي لنفس العشيرة التي تنتمي لها الأم أو ينتمي لها الأب أو الأخ، كأن نقول عندنا بأن فلان ابن عم أو "بْناخي" (= ابن أخ) بمعنى أنه من الحمولة، أي من العائلة الممتدة، دون أن نقصد بذلك أنه ابن الأخ حقيقة أو ابن العم الذي هو أخو الأب الحقيقي. فهناك نوع من التمييز يقوم في ذهن المتكلم بين أبيه الحقيقي أو أخيه الحقيقي أو أمه الحقيقية مثلا وبين الأقرباء البعيدين الذي يطلق عليهم مثل هذه المصطلحات بحكم طبيعة العلاقة التي تربطه بهم وبحكم جنس وجيل الأقرباء المعترضين. وكلما بعدت المسافة القرابية كلما قلت الحميمية وحدة المشاعر ودرجة الالتزام بما يفترضه المصطلح من حقوق وواجبات. فمثلا حيث أن هذه المجتمعات، كما قلنا، تمارس الزواج الخارجي ويمنع فيها الزواج الداخلي فإنه يفترض في المتكلم أن لا يتزوج من أي فتاة في العشيرة تقع في فئة الفتيات اللاتي يطلق عليهن مصطلح أخت، لكن إذا زاد عدد الأقرباء المعترضين بينه وبينها عن حد معين وبعدت المسافة بينهما فلا مانع من زواجه بها.

النسق التصنيفي، وإن كان يتنافى مع المبدأ الحسابي الذي يتبعه النسق التوصيفي في تحديد علاقات القربى والذي هو الأكثر تطورا في نظر موغان والأقرب لحقيقة العلاقات البيولوجية التي تمليها الطبيعة، إلا أنه أكثر تواؤما مع النظام العشائري الذي يفتقر إلى السلطة المركزية وتقوم مؤسساته وجميع العلاقات الاجتماعية فيه على العلاقات القرابية. من فوائد النسق التصنيفي أنه يوثق صلات القربى بين الأفراد، فالأفراد هم الذين يوفرون الحماية للفرد ويهبون لمساعدته وقت الحاجة، مما يجعله حريصا على توسيع دائرة أقاربه إلى أبعد حد ممكن. فقيمة الفرد في المجتمعات العشائرية تتحدد بحجم أقاربه والجماعة التي ينتمي لها (Morgan 1997: xi).

وحينما تحل الدولة محل القبيلة ويتطور المجتمع من مجتمع عشائري *societas* تربطه العلاقة القرابية kinship بين الأشخاص إلى مجتمع مدني *civitas* تربطه المجاورة المكانية territorial ويتكرس مفهوم الملكية الخاصة تبرز قضية توريث الثروة من الآباء للأبناء مما يصبح معه تحديد قرابة الدم أمرا ضروريا. عندها يتم التحول من عموميات النسق التصنيفي إلى النسق التوصيفي الذي يحدد علاقة القربى وصلة الدم بشكل دقيق لا لبس فيه (Morgan 1985: 6-7, 344-6; 1997: 492). وبطبيعة الحال فإن هذه التغيرات بدورها سوف ترتبط بتغيرات في أشكال الزواج ومن ثم نظام العائلة ومصطلحات القرابة، حيث أن الزواج هو المؤسسة المسؤولة في المقام الأول عن تنظيم العلاقات الجنسية في المجتمع البشري وبالتالي عن عملية التناسل وضمان استمرارية العائلة البيولوجية.

وهنا نأتي إلى نقطة الخلاف الأساسية بين مورغَن ومن سبقه من المفكرين الذين عرضنا آراءهم أعلاه مثل مين ودي كولانج ومَكْلِيْنَن، وهو خلاف ورثته من بعدهم الأجيال اللاحقة من المختصين في هذا المجال. كان مورغان، كما قلنا، على قناعة تامة بأن مصطلحات القرابة تشير فعلا إلى قرابة الدم، فحتى لو أشار الإبن إلى عدة رجال على أنهم آباءه أو إلى عدة نساء على أنهن أمهاته فمرد ذلك إلى أنه لا يعرف حقيقةً مَن مِن الرجال ضاجع أمه ومَن مِن النساء ضاجعت أباه ومن ثم من يكون أبوه الفعلي أو أمه الفعلية، ونظرا لاحتمالية أن يكون أيا من هؤلاء الرجال أبيه الذي جاء من صلبه وأيا من هؤلاء النساء أمه التي ولدته لذلك

فإنه بناء على هذا الاحتمال يدعوهم جميعا كما لو كانوا آباؤه وأمهاته. وسبقت الإشارة إلى أن الأبناء في زواج الـ sorrorate يطلقون على أخت أمهم مسمى أم بما أنها هي أيضا زوجة للأب، أو على الأقل تحسبا لهذه الاحتمالية، كما يطلق الأبناء في زواج الـ polyandry على أخي أبيهم مسمى أب لنفس السبب. مفاهيم المصطلحات القرابية ومدلولاتها، في نظر مورغان، تقوم على أساس أنها تشير إلى علاقات التزاوج والولادة وما يترتب على هذه العلاقات البيولوجية من نسق قرابي ومصطلحات قربى يحددها شكل الزواج المتبع. لم يكن مورغَن يتصور أن هناك أي صلة للقرابة غير الصلة البيولوجية الصرفة الناجمة عن علاقة النكاح بين الرجل والمرأة. فلا قربى بدون زواج. اعتماد نظام العائلة ونسق القرابة على شكل الزواج من القوة بحيث أنه لا يمكن أن يتغير نسق القربى إلا بتغير شكل الزواج.

أما مين ودي كولانج ومَكْلِيْنَن فلم ينظروا إلى مصطلحات القرابة على أنها انعكاسا لصلات الدم بين الأقارب أو أن العلاقة التي تربط الأقارب مجرد علاقة بيولوجية. نظر هؤلاء إلى القرابة على أنها مركب ثقافي وحقيقة اجتماعية قبل أن تكون حقيقة بيولوجية. فالأفراد يستخدمون مصطلحات القرابة ليس لتحديد مسافة العلاقات البيولوجية بينهم وإنما لتحديد المكانات الاجتماعية، وربما أحيانا كألقاب تشريفية وكمجرد وسيلة للتعبير عن الاحترام أو الولاء والتبعية، كما يقول مَكْلِيْنَن (Needham 1967b: xxxiv). والعلاقات الجنسية ليست وحدها المسؤولة عن استمرار وجود العائلة إذ أن هناك حيل قانونية مثل التبنّي والولاء والحلف يمكن أن تلجأ لها العوائل لتجنيد أعضاء جدد، كما يقول مين. أما دي كولانج فكان رأيه أن ما يشكل العائلة ويوحد بين أفرادها ليس صلة الدم وإنما الأهم من ذلك اشتراكهم في عبادة سلف واحد. العبادة، لا الولادة، هي التي توحد بين أفراد العائلة في عصور المدينة العتيقة. ويبحث دي كولانج في اشتقاق كلمة "أب" في اللغات الرومانية واليونانية والسنسكريتية القديمة ليستنتج أن الكلمة كانت في الأصل لا علاقة لها بالنسب البيولوجي ولا تحمل معنى جينيولوجيا وإنما معاني السلطة والقوة والعظمة والوقار والجلال وكرامة المنزلة وسمو المكانة وتطلق على الآلهة للتبجيل مثل أَبُولو Apollo وجُوبِتَر Jupiter ونبتون Neptune وبَاخُس Bacchus، مثلما كان لقب أم يطلق على آلهات ترمز للعذرية (والعذرية بطبيعة الحال تتنافى مع الأمومة البيولوجية) مثل مِنِرْفا Minerva ودَيَانا Diana وفِسْتا Vesta (Service 1985: 11). ويقول أندرو لانْغ Andrew Lang إن مصطلحا مثل مصطلح "أب" لا يشير إلى علاقة بيولوجية/جينيولوجية بين المتكلم والمخاطب وإنما إلى مكانة اجتماعية يحتلها الأب وغيره ممّن هم في سنه ومقامه من رجال العشيرة. ولو كان الدافع لإطلاق مسمى "أب" من قبل الإبن على كل رجل في العشيرة يحتمل أنه واقع أمه ولقحها وأنجبته لأطلق هذا المسمى على كل الرجال البالغين، حتى الشيوخ الكبار منهم، لكن هؤلاء الشيوخ يتم تصنيفهم في مكانة اجتماعية أخرى ويطلق عليهم مصطلحا آخر غير مصطلح "الأب" (Lang 1903: 101).

وعلى الرغم من اختلاف مورغَن ومَكْلِيْنَن في عدد من المسائل إلا أنهما يلتقيان في عدد من النقاط المهمة. كلاهما كانا يريان أن نقطة الصفر لانطلاقة المجتمع البشري نحو التطور الثقافي والاجتماعي كانت مرحلة الإباحية الجنسية التي كان فيها الرجل يجامع أي امرأة من نساء الجماعة حيث لم يكن يعرف من تكون أمه أو أخته أو أيا من محارمه. في تلك المرحلة البهيمية لم يعرف البشر قوانين الزواج ولا نظام العائلة. وحيث كانت معاشرة النساء أمرا مباحا لجميع الرجال بلا قيود فمن الطبيعي أن تبدأ أول درجة على سلم الرقي الحضاري بالنسب الأمومي قبل الأبوي لصعوبة معرفة الأب الحقيقي للأولاد. لكن مورغَن ومَكْلِيْنَن

كانا يختلفان في كيفية نشوء النسب الأمومي. فبينما يرى مَكْلِيْنَن أنه جاء نتيجة خطف الزوجات قال مورغَن إن أساسه انشطار القطيع الأصلي إلى شِقّين يتم بينهما اتفاق ضمني يقوم على التبادلية ويتنازل بموجبه الإخوة في إحدى الشقين عن أخواتهم ليصبحن زوجات للإخوة في الشق الآخر والذين بدورهم يتنازلون عن أخواتهم لأولئك الإخوة الذين تنازلوا لهم عن أخواتهم، أي ما يسمى connubium. كما يختلف مورغَن ومَكْلِيْنَن في رسم وتحديد المراحل التطورية التي مر بها الإنسان بعد تخطيه مرحلة الإباحية الجنسية، وقد سبق لنا أن قدمنا عرضا مختصرا لآراء مَكْلِيْنَن في هذه المسألة والآن حان الوقت لعرض آراء مورغان.

حيث أن مورغَن يرى أن علاقات الدم هي التي تحدد علاقات القربى فإن تغيرات الأنساق القرابية مرهون بتغيرات أشكال الزواج لأن الزواج، في رأيه، هو المؤسسة المسؤولة في المقام الأول عن تنظيم العلاقات الجنسية في المجتمع البشري وبالتالي عن عملية التناسل وضمان استمرارية العائلة البيولوجية. من هذا المنطلق ومن هذا الفهم لمبدأ القرابة وأسسها، لا غرو أن يجد مورغَن في النسق التوصيفي، الذي يقول إنه يقوم على المبدأ الحسابي، نسقا طبيعيا وبديهيا لكن ما كان في نظره يبدو نسقا غريبا يحتاج إلى تفسير هو النسق التصنيفي، ثم كان عليه أن يفسر أيضا كيف تم التحول من النسق التصنيفي، والذي يتخذ نمطين أساسيين سنتطرق لهما لاحقا، إلى النسق التوصيفي الذي يمثل المرحلة الأخيرة والمتحضرة في سلسلة من التحولات التطورية عددها في خمس مراحل متتالية (Morgan 1997: 479-93; 1985: 383ff) تأتي بعد مرحلة الإباحية الجنسية التي تمثل أدنى مرحلة ذهنية وأخلاقية يمكن تصورها والتي كان فيها الإنسان يحيا حياة بهيمية ولا يتميز عن سائر الحيوانات إلا بملكاته الكامنة التي سوف تنقله وفق مراحل متدرجة من حياة الوحشية إلى حياة المدنية. في هذه المرحلة الأولية التي تعد مرحلة الصفر كان ذكاء الإنسان محدودا ولم يتشكل بعد عنده الوازع الأخلاقي. من هذه النقطة المتدنية بدأ الإنسان مسيرته التطورية وفق مراحل متتالية يمكن تلخيصها فيما يلي:

١/ النمط الأقدم والأكثر بدائية من أنماط النسق التصنيفي والذي يأتي مباشرة بعد مرحلة الإباحية الجنسية هو نمط الزواج المختلط بين الإخوة والأخوات الذي لا يميز فيه المتكلم بين أقاربه إلا من حيث السن والجنس. فكل من هم من جيل أبيه من الرجال يدمجهم في مصطلح واحد ويدعوهم أبي ومن النساء يدعوهن أمي، وكل من هم من جيله يدعوهم أخي أو أختي وكل من هم من جيل أبنائه يدعوهم إبني أو بنتي. شكل الزواج الوحيد الذي يمكن أن يفسر هذا النمط القرابي هو أن لا يتزوج الوالدين من الأولاد ولكن الإخوة، كمجموعة وليس كأفراد، يتزوجون أخواتهم –أيضا– كمجموعة وليس كأفراد. أي يتم التزاوج بين من ينتمون لنفس الجيل من أبناء وبنات القطيع وليس من ينتمون لأجيال متعاقبة من الآباء والأبناء. في هذه الحالة يصبح الأطفال مشتركين وإخوانا لبعضهم البعض ويشترك الرجال الذين تزوجوا أخواتهم في أبوة الأطفال وتشترك الزوجات من الأخوات في أمومتهم. فلا أحد من الأطفال يعرف أمه البيولوجية ولا أباه البيولوجي ولا إخوته من أمه وأبيه، ولذا فإن كلا منهم يدعو جميع الرجال أبي وجميع النساء أمي وجميع الأطفال أخي أو أختي، كذلك الرجال والنساء كل منهم يدعو أيا من الأطفال إبني أو بنتي. وهذا الشكل من أشكال العائلة سماه مورغَن Consanguine Family. في هذه المرحلة لا ينبغي أن نفهم كلمة أخ أو أخت أو أب أو أم بمعناها الحديث وإنما القصد هو أن أبناء الجماعة كانوا كلهم إخوة وأخوات لبعضهم البعض لأنه لم تتبلور بعد مفاهيم الأبوة والأمومة والأخوة بمعانيها المتعارف عليها الآن وكانت العلاقات

الجنسية غير محكومة بضوابط الزواج وقيوده بحيث يمكن تحديد النسب. لذلك كانت علاقات القربى، كما يقول مورغان، غير مبنية على علاقات طبيعية مؤكدة نابعة من صلة بيولوجية، وإنما على شكل التزواج بين أفراد العائلة الواحدة ذكورا وإناثا وما يترتب على ذلك من احتمالات يصعب التثبت منها فيما يخص النسب. يقول مورغَن إن هذا النظام القرابي، على الرغم من بدائيته وتحلله الأخلاقي، إلا أنه يظل نظاما متطورا إذا ما قيس بمرحلة الإباحية (Morgan 1985: 418).

٢/ في المرحلة التالية يعزف الرجال عن تزوج أخواتهم (أي فتيات الجماعة المحلية) والنساء عن تزوج إخوانهن (أي أبناء الجماعة المحلية)، لكن الإخوة كمجموعة يشتركون في زوجاتهم الأجنبيات اللاتي يجلبونهن من خارج العائلة واللاتي قد يكن في هذه الحالة أخوات أو غير أخوات أحدهن للأخرى، المهم ألّا يكن أخوات للأزواج، وهذا ما يسمى fraternal polyandry، وكذلك تشترك الأخوات في أزواجهن من خارج العائلة واللذين قد يكونون في هذه الحالة أخوان أو غير أخوان أحدهم للآخر، المهم ألا يكونوا أخوانا للزوجات، وهذا ما يسمى sororal polygyny. وهذا الشكل من أشكال العائلة سماه مورغَن Punaluan Family. في هذا الشكل الزواجي يظل أطفال الإخوة إخوة، حيث أن الإخوة يشتركون في مضاجعة زوجاتهم. كذلك أطفال الأخوات يظلون إخوانا، حيث أن الأخوات يشتركن في مضاجعة أزواجهن. لكن بما أن الإخوة لم يعودوا آباء لأطفال أخواتهم وإنما أخوالا، كذلك الأخوات لم يعدن أمهات لأبناء إخوانهن وإنما عمات، فإن أطفال الإخوان، بموجب ذلك، لم يعودوا إخوة لأطفال الأخوات. هذه هي البدايات الأولى للنظام العشائري والزواج الخارجي والانتساب للأم بحيث أن أبناء وبنات الأخت ينتسبون لعشيرتها بينما أبناء وبنات أخيها ينتسبون لعشيرة أمهم. الزواج الخارجي يترتب عليه الفصل بين أطفال الإخوة من زوجاتهم الأجنبيات من جهة وفصل أطفال الأخوات من أزواجهن الأجانب من جهة أخرى، فلا يصبح أطفال الإخوان إخوة لأطفال الأخوات، وإنما أبناء وبنات عمات وأبناء وبنات أخوال. لكننا لا نزال هنا في نطاق النسق التصنيفي حيث لا يزال الدمج قائما في هذه المرحلة بين الأب وأخي الأب (العم) –بحكم تشارك الإخوة في معاشرة زوجاتهم– في مصطلح واحد وبين الأم وأخت الأم (الخالة) –بحكم تشارك الأخوات في معاشرة أزواجهن. لكن الخال، على خلاف النظام السابق، لا يدمج مع الأب ولا العمة مع الأم ولا أبناء العمة وأبناء الخال مع الإخوة الذين يدمجون مع أبناء وبنات العم وأبناء وبنات الخالة (Morgan 1985: 418). يعزو مورغَن هذه النقلة المتمثلة في الامتناع عن زواج الإخوة بالأخوات إلى بوادر الحس الأخلاقي الذي بدأ يتبلور عند الإنسان البدائي واشمئزاز الإخوة من مضاجعة أخواتهم وإلى نمو الإدراك البشري، وإن بشكل غامض ومشوش، إلى النتائج الوخيمة والمضار المترتبة على زواج الإخوة من أخواتهم (Morgan 1985: 415, 424). ويمكننا من الشكل في الصفحة التالية تتبع النتائج التي يفضي إليها هذا النمط من التزاوج.

٣/ في المرحلة التالية يتم الزواج بين رجل وامرأة لا تربطهما علاقة القربى ويقترنان بقران الزوجية. وهذا الشكل من أشكال العائلة سماه مورغَن Syndyasmian/Pairing Family. العلاقات الزوجية في هذه المرحلة وإن كانت أحادية بين زوج واحد وزوجة واحدة إلا أنها غير مستقرة وغير عفيفة إذ يسمح لكلا الزوجين بالمباشرة الجنسية خارج إطار الزوجية، كما يسمح لأي منهما فسخ عقد الزواج حسب رغبته ومتى ما شاء بدون قيد ولا شرط (Morgan 1985: 454-5, 503-4).

٤/ تأتي بعد ذلك مرحلة زواج الرجل مع عدد من النساء وهذا الشكل من أشكال العائلة سماه مورغَن

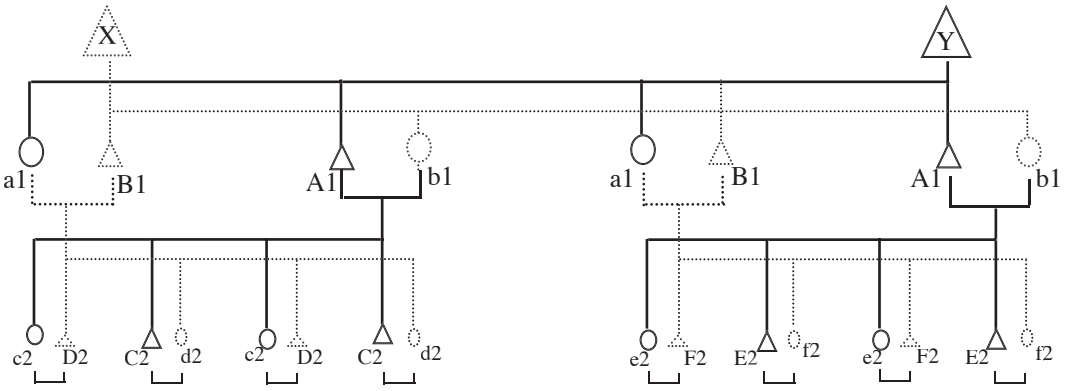

هذا الرسم المبسط يوضح نسق القرابة التصنيفي واندماج مصطلحات قرابة الدم مع مصطلحات قرابة المصاهرة. تشير الأرقام في هذا الشكل إلى الأجيال: الجيل الأول 1 والجيل الثاني 2. وتشير الحروف الإنجليزية الكبيرة A, B, C, D, E, F لجنس الذكور والصغيرة a,b,c,d,e,f لجنس الإناث. الأشخاص الذين ينتمون لنفس الجيل ونفس الجنس وينحدرون من نفس الأب يحتلون خانة قرابية واحدة لذا يُرمز لهم بنفس الحرف والرقم. الأخوان A1 والأختان a1 كلهم من نفس الجيل هم والأخوان B1 والأختان b1.

يُرزق Y من أحد شِقي القبيلة بابنين A1 وبنتين a1، كذلك يرزق X من الشِّق الثاني من القبيلة بابنين B1 وبنتين b1. ويتزوج الأخوان A1 ابنا Y من الأختين b1 بنتي X. كما يتزوج الأخوان B1 ابنا X من الأختين a1 بنتي Y.

في هذا النمط من الزواج يحصل اندماج بحيث يصبح ابن العم بالنسبة للأنا هو أيضا ابن الخالة وهو كذلك بمثابة الأخ لأن أمه التي هي أخت أم الأنا بمثابة الأم وأبيه الذي هو أخو الأب بمثابة الأب. كذلك تصبح بنت العم هي أيضا بنت الخالة وهي كذلك بمثابة الأخت لأن أمها التي هي أخت الأم بمثابة الأم وأبيها الذي هو أخو الأب بمثابة الأب. كما يندمج ابن الخال مع ابن العمة وتندمج بنت الخال مع بنت العمة. بناء على ذلك يعتبر الأبناء والبنات F2, f2, D2, d2 كِلا A1 بمثابة الأب وكِلا b1 بمثابة الأم، لكنهم يعتبرون B1 بمثابة أخو الأم (الخال) و a1 بمثابة أخت الأب (العمة). أما الأبناء والبنات G2, g2, E2, e2 فيعتبرون كِلا B1 بمثابة الأب وكِلا a1 بمثابة الأم لكنهم يعتبرون A1 بمثابة أخو الأم و b1 بمثابة أخت الأب. هذا يعني أن d2 و F2 في عداد الإخوة والأخوات ولذا لا يجوز لهم الزواج من بعضهم البعض. وكذلك هي الحال مع D2 و f2، ومع E2 و g2، ومع e2 و G2.

العائلة الأبوية Patriarchal Family. وفي هذه المرحلة يتم الانتقال من النسب الأمومي إلى النسب الأبوي ومن أنماط النسق التصنيفي إلى أنماط النسق التوصيفي.

٥/ المرحلة الأخيرة هي مرحلة الزواج الأحادي بين زوج واحد وزوجة واحدة لا غير وهذا الشكل من أشكال العائلة لا يسمح فيه لأي من الزوجين إقامة علاقة جنسية مع أي شخص آخر وسماه مورغَن Monogamian Family.

لإعادة بناء هذه الأشكال العائلية التي تمثل مراحل متتالية من مراحل تطور العائلة البشرية والتي كان أغلبها أشكال منقرضة وغير موجودة على أرض الواقع الإثنوغرافي لجأ مورغَن إلى جمع وتفحص المصطلحات القرابية التي كانت عادة لا تتمشى تماما مع نظم القرابة المرتبطة بها ولا يمكن فهمها، في نظره، إلا إذا افترضنا أنها تعكس أشكالا سابقة من أشكال الزواج عفى عليها الزمن، ولذا يمكن التعويل عليها لإعادة بناء تلك الأنظمة وتلك الأشكال وتتبع مراحل تطورها (Morgan 1985: 391-2, 408-9; Tooker 1985: xx-xxi). فالمصطلح الذي يدمج العم مع الأب أو الأم مع الخالة لا بد وأنه، كما يقول مورغان، يمثل مستحاثة لفظية تعكس شكلا من أشكال الزواج المنقرض التي كان فيها الزواج زواجا جماعيا بين عدد من الأخوة يتشاركون في الزوجات وعددا من الأخوات يتشاركن في الأزواج، لكن شكل الزواج تغير وبقي المصطلح الذي يشير إليه قيد الاستعمال رغم عدم اتساقه مع شكل الزواج القائم ونظام النسب المترتب عليه لأن أشكال الزواج كانت أسرع في تغيرها

من مصطلحات القرابة النابعة منها. وهنا يبرز تناقض في أفكار مورغَن يشير إليه السير جان لَبُك Sir John Lubbock. فبينما نجده مرة يقول أن مفردات اللغة التي عول عليها الفيلولوجيون في إعادة بناء تاريخ الجنس البشري والربط بين الشعوب الكثيرة في عوائل لغوية محدودة العدد تتغير بسرعة أكثر من الأنماط القرابية التي يعول عليها هو في جسر الهوة التي عجزت الفيلولوجيا عن ردمها بين العوائل اللغوية، إذ به يناقض نفسه ويقول في موقع آخر بأن المصطلحات القرابية هي مستحاثات لفظية متحجرة يمكن اللجوء لها لإعادة بناء أشكال الزواج وأنماط القرابة المنقرضة مما يعني أن هذه الأشكال والأنماط كانت أسرع في تغيرها من المصطلحات اللفظية الدالة عليها (Service 1985: 62).

أنماط القرابة

بناء على الأسس التي رسم ملامحهما مورغَن فرّع الأنثروبولوجيون اللاحقون من النسقين التوصيفي والتصنيفي عددا من الأنماط القرابية معتمدين في ذلك على المصطلحات المستخدمة للإشارة إلى العم والعمة والخال والخالة وأولادهم. هناك نمطان من الأنساق التوصيفية هما النمط السوداني Sudanese ونمط الأسكيمو Eskimo وأربعة أنماط من الأنساق التصنيفية هي أنماط الهاوائي Hawaiian والأُرُكْواي Iroquois والأُمَها Omaha والكْرَو Crow. (والكْرَو يسمى أيضا تشوكتاو Choctaw). وغالبا ما تتخذ هذه الأنماط القرابية أسماءها من أول قبيلة أو مجتمع تم اكتشاف النمط فيه أو الذي يمثل نموذجا مثاليا للنمط، علما بأن النمط ذاته قد يوجد في أماكن متفرقة ومجتمعات مختلفة في أنحاء المعمورة. فنمط الأسكيمو نسبة إلى قبائل الأسكيمو، والنمط السوداني هو النمط العربي لكنه يسمى النمط السوداني حيث أن أول من وصفه هم الأنثربولوجيون البريطانيون في السودان خلال حقبة الاستعمار الإنجليزي لتلك البلاد. وينتشر نمط الهاوائي في جزر هاوائي وجزر المحيط الهادي والبحر الكاريبي Caribbean Islands وبولينيزيا Polynesia. أما أنماط الأُرُكْواي والكْرَو والأُمَها فتعود تسمياتها إلى ثلاث قبائل هندية من قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، إلا أنها من الأنماط التصنيفية واسعة الانتشار في أنحاء العالم.

يميز النمط السوداني تمييزا واضحا بين الأقارب بحيث يعطي مصطلحا مستقلا لكل خانة من خانات الأقارب الستة عشر الذين يشملهم مشجر النسب المختصر الذي يتضمن أقارب الدرجة الأولى والثانية من جيل المتكلم وجيل الوالدين. فبالإضافة إلى تفريقه بين القرابة العمودية والقرابة الكتفية يفرق كذلك بين الخؤولة والعمومة وأبناء الخؤولة وأبناء العمومة. فلا غرو أنه الأقل انتشار من بين أنماط تصنيف الأقارب الستة ولا يوجد إلا في سبع مجتمعات من بين ٨٦٢ مجتمعا أحصاها **الأطلس الإثنوغرافي** (Harris 1971: 347). ويسمى النمط السوداني نمط شطر الأكتاف bifurcate collateral لأنه يشطر bifurcate، أي يفصل اصطلاحيا الأقرباء في الخط العمودي، وهم الوالدين والإخوة، عن أقرباء الأكتاف collaterals، وهم الأعمام والأخوال وذراريهم، ثم يعود ويشطر أيضا الأعمام وذراريهم عن الأخوال وذراريهم.

أما نمط الأسكيمو فإنه يدمج العم والخال تحت مصطلح واحد، مثل uncle، ليميزهما عن الأب father، وكذلك يدمج العمة مع الخالة في مصطلح واحد، مثل aunt، ليميزهما عن الأم mother، كما يدمج كل أبناء العمومة والخؤولة في مصطلح واحد ليميزهم عن الإخوة، مثل اللغة الإنجليزية التي تدمجهم جميعا تحت مصطلح cousin. ويسمى نمط الأسكيمو النمط العمودي lineal لأنه ينصب تركيزه على مصطلحات القرابة

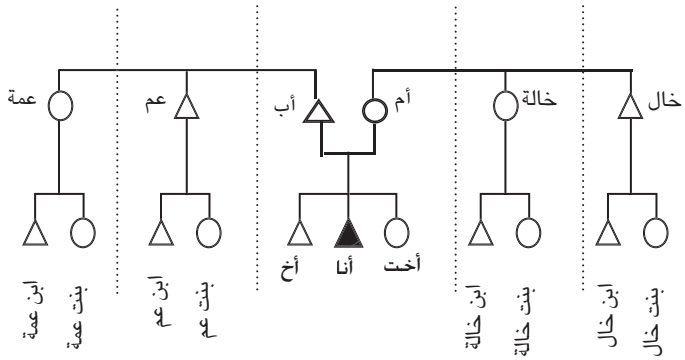

النمط السوداني

العمودية ويفرق بشكل واضح بينها وبين مصطلحات القرابة الكتفية التي يدمجها اصطلاحيا، مما يؤكد على أهمية العائلة النووية واستقلاليتها عن العائلة الممتدة، لذا يوجَد نمط الأسكيمو إما في المجتمعات البدائية التي تقطن بيئات مواردها شحيحة لا تتحمل إعاشة عائلات ممتدة ويتشتت فيها الناس في عائلات نووية صغيرة بحثا عن لقمة العيش مثل مجتمع الأسكيمو، أو في المجتمعات الصناعية والمتقدمة التي تتمتع فيها العائلة النووية باستقلالية اقتصادية وتعتمد على مؤسسات الدولة ونظام السوق. وعدم تمييز هذا النمط بين الأقرباء من جهة الأم والأقرباء من جهة الأب يبين لنا انتشاره في المجتمعات التي تتبع النسب الثنائي.

أما بالنسبة للأنساق التصنيفية فإن نمط الهاوائي من بينها يعد الأكثر بدائية حيث يصنف المتكلم في

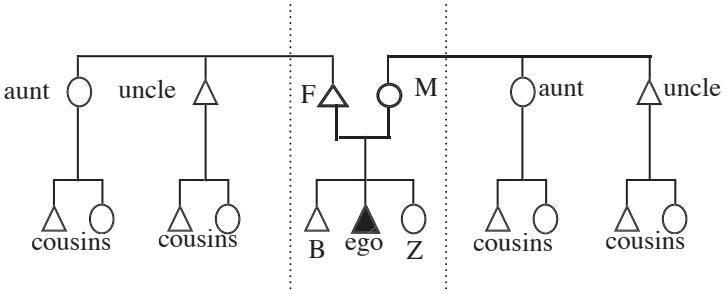

نمط الأسكيمو

منزلة قرابية واحدة كل الأشخاص الذين من جيله، فلا يفرق اصطلاحيا بين إخوانه وأخواته من جهة وبين أبناء وبنات عمه وعمته وخاله وخالته من جهة أخرى ويطلق عليهم نفس المصطلح. كما يصنف كل الأشخاص الذين من جيل والديه في منزلة قرابية واحدة فلا يفرق اصطلاحيا بين أبيه وعمه وخاله من جهة ولا بين أمه

وخالته وعمته من جهة أخرى، ويصنف كذلك كل الأشخاص الذين من جيل أبنائه في منزلة قرابية واحدة فلا يفرق اصطلاحيا بين أبنائه وبناته وبين أبناء وبنات إخوته وأخواته. أي أن نمط الهاوائي يصنف الأقارب من نفس الجيل (سواء الجيل الصاعد أو الجيل النازل أو الجيل المجايل) في منزلة قرابية واحدة ويطلق عليهم مصطلحا واحدا ولا يفرق بينهم عدا ربما فيما يتعلق بالجنس (ذكرا أو أنثى). ويُسمى نمط الهاوائي النمط الجيلي generational حيث أن سمة الجيل، إما صعودا أو نزولا، هي العامل الأهم والسمة التي يرتكز عليها المتكلم، إضافة إلى الجنس، في تحديد المصطلح الذي يستخدمه في تصنيف الأقارب ومخاطبتهم. ومن الواضح أن نمط الهاوائي نمطا ثنائيا في تتبع النسب يدمج بين الخط الأمومي والخط الأبوي. كما يلاحظ في هذا النمط الدمج التام للعائلة النووية وانضوائها كليا تحت مظلة العائلة الممتدة.

وتسمى أنماط الأسكيمو والهاوائي والأُرُكْواي، وهو النمط الذي سنتطرق له لاحقا، أنماطا تعادلية balanced لأن المصطلحات المستخدمة للإشارة إلى الأقارب من جهة الأم تتعادل وتتوازن وتندمج مع المصطلحات المستخدمة للإشارة إلى الأقارب من جهة الأب. فأنت تعادل اصطلاحيا بين عمك وخالك إما بأن تدمجهما في مصطلح واحد مختلف عن مصطلح الأب وكذلك تدمج أبنائهم في مصطلح واحد مختلف عن مصلح الإخوة والأخوات، أو تدمج عمك وخالك اصطلاحيا مع أبيك وتدمج أبنائهما جميعا مع إخوتك وأخواتك. كذلك الخالة والعمة إما أن تدمجهما في مصطلح واحد مختلف عن مصطلح الأم وكذلك تدمج أبنائهن في مصطلح واحد يختلف عن مصلح الإخوة والأخوات، أو تدمجهما كليهما مع مصطلح الأم، وتدمج أبناءهما جميعا مع الأخوة والأخوات. أي أنك في كل الحالات لا تفرق اصطلاحيا بين الخال والعم ولا بين العمة والخالة وأبنائهم.

هذا على خلاف النمط السوداني الذي تختلف تسمياته لأقارب الأم عن تسمياته لأقارب الأب، مثله في ذلك مثل نمط الكْرَو الأمومي ونمط الأُمَها الأبوي اللذين سنتطرق لهما لاحقا. كما تعكس مصطلحات نمطي الأسكيمو والأُرُكْواي توازنا في الأهمية بين سمة الجيل وسمة الاختلاف بين العلاقة العمودية والعلاقة الكتفية، على خلاف النمط الهاوائي الذي يغفل الفروقات بين العلاقات العمودية والعلاقات الكتفية ويدمجها مع بعضها وينصب تركيزه فقط على الخلاف الجيلي. وحينما نتطرق لنظم الكْرَو والأُمَها سنجد مصطلحاتها القرابية، على عكس الهاوائي، ينصب تركيزها على هوية النسب والانتماء العشائري مما يؤدي إلى دمج أقارب ينتمون لنفس النسب في مصطلح واحد بصرف النظر عن اختلاف أجيالهم.

تسمى أنماط الأُرُكْواي والكْرَو والأُمَها، التي سنفصل القول فيها حالا، أنماط الدمج والشطر bifurcate merging لأنها تدمج الأم في نفس المصطلح مع الخالة من ناحية وتشطرهما عن العمة من ناحية أخرى لأن العمة تنتمي لعشيرة مختلفة، كما تدمج الأب في نفس المصطلح مع العم وتشطرهما عن الخال لنفس السبب. وتبعا لذلك تدمج الإخوة في نفس المصطلح مع أبناء العم ومع أبناء الخالة وتشطر هؤلاء جميعا عن أبناء العمة وأبناء الخال الذين لا يدمجون مع الأخوة. وتبعا لذلك أيضا يدمج الرجل أبناء إخوته مع أبنائه ويعتبرهم في عداد الأبناء له، كما تدمج المرأة أبناء أخواتها مع أبنائها وتعتبرهم في عداد الأبناء لها. لكن الأخ لا يدمج أبناء أخته مع أبنائه ولا تدمج الأخت أبناء أخيها مع أبنائها. وغالبا ما توجد أنماط الدمج والشطر الاصطلاحي في المجتمعات العشائرية أحادية النسب التي يتم تتبع النسب فيها من خط واحد بصرف النظر عن طبيعة النسب المتبع –أي سواء تم تتبع النسب من خط الأم، كما في الأُرُكْواي والكْرَو، أو من خط الأب، كما في

الأُمَها- ويكون الزواج فيها زواجا خارجيا. في الزواج الخارجي لا يسمح بالتزاوج بين أبناء الخالات ولا بين أبناء الأعمام لأنهم يصنفون في عداد الأخوة والأخوات. كما أن أبناء الخالة في حالة النسب الأمومي وأبناء العم في حالة النسب الأبوي سيكونون من نفس العشيرة. ولا يسمح بالزواج إلا بين من يعترض بينهم أخوان من جنسين مختلفين لأنهم في هذه الحالة كل منهم سوف ينتمي لعشيرة غير عشيرة الآخر. هذا يشمل زواج الإبن من بنت عمته أو بنت خاله، أي زواج البنت من ابن عمتها أو ابن خالها.

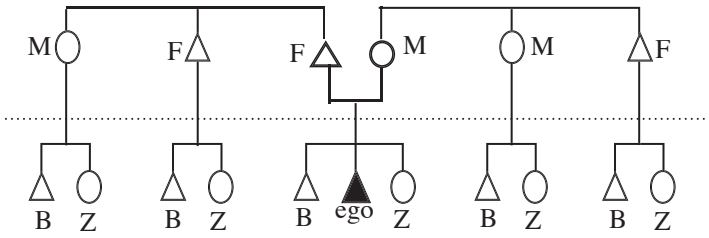

نمط الهوائي

هذه هي أهم السمات التصنيفية التي تشترك بها أنماط الأُرُكْواي والكْرَو والأُمَها. إضافة إلى ذلك فإن نظام الزواج المتبع في نمط الأُرُكْواي والذي يسمى زواج تبادلي مباشر direct marriage exchange يؤدي إلى دمج أبناء الخال وأبناء العمة في مصطلح واحد. فمثلما أن الأب والعم يتزوجان من أختين تنتميان لعشيرة واحدة كذلك فإن أحد أبناء تلك العشيرة التي جاءت منها أم المتكلم والذي هو خال المتكلم أصلا، سوف يتزوج عمة المتكلم، أي أخت أبيه، وهكذا يتزوج الخال من العمة مثلما يتزوج العم من الخالة وبذلك يكون أبناء الخال matrilateral cross cousins أو MB children هم أصلا أبناء العمة patrilateral cross cousins أو FZ children. وهكذا يتم دمج أبناء الخال مع أبناء العمة لكنهم مع ذلك منفصلين عن الأخوة وأبناء العم وأبناء الخالة نظرا لاختلافهم عنهم في الانتماء العشائري.

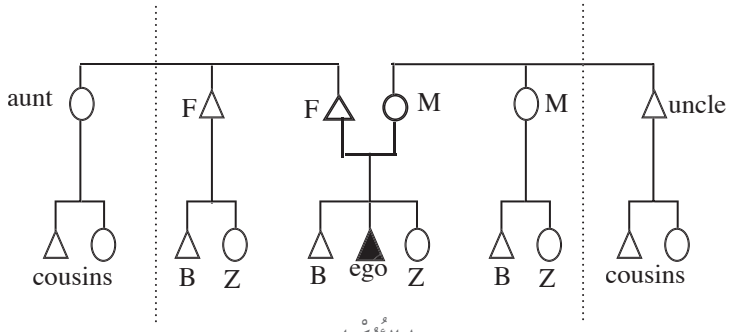

نمط الأُرُكْواي

هكذا نجد أن نمطي الكْرَو الأمومي والأُمَها الأبوي يتفقان مع نمط الأُرُكْواي في الكثير من الخصائص، بما في ذلك دمج الأب مع العم وأبناء العم مع الإخوة ودمج الأم مع الخالة وأبناء الخالة مع الإخوة. إلا أنهما يختلفان عنه في أن المتكلم يميز اصطلاحيا بين أبناء عمته وأبناء خاله. وهذا يعود إلى أن نظام التزاوج عند الأُرُكْواي يختلف عن نظام التزاوج عند الكْرَو والأُمَها والذي سنفصل القول فيه في الفصل التالي بعد استكمال الحديث عن نظم التزاوج.